(حديث عجائز في مأتم)

حدَّثتني امرأةٌ تَعْرِفُ الأمورَ، قالتْ: كانَ في الحيِّ مأتَمٌ اجتمعَ فيه عجائزُ من عَجائزِ الحيِّ. فلمّا رأين أنَّ أهلَ المأتَم قد أقَمْنَ المَناحةَ، اعتزلْنَ وتحدَّثْن. فَبَيْنا هُنَّ في حَديثِهِنَّ إذْ ذَكَرْنَ بِرَّ الأبناءِ بالأمهاتِ، وإنفاقَهُمْ عليهنَّ. وذكرتْ كلُّ واحدةٍ منهنَّ ما يُوليها ابْنُها. فقالت واحدةٌ منهنَّ، وأمُّ فِيلَوَيْه ساكِتَةٌ - وكانتِ امرأةً صالحةً، وابنُها يُظْهِرُ النُّسْكَ، ويَدِينُ بالْبُخْل، وله حانوتٌ في مَقْبَرةِ بَني حصْنٍ، يَبيع فيها الأسْقَاط [1].

قالتْ: فأقبلتُ على أمِّ فِلَوَيْهِ قُلْتُ لها: مَا لكِ لا تَحَدَّثينَ معنا عن ابنك كما يتحدَّثْنَ؟ وكيفَ صنَعَ فِيلَوَيْهِ فيما بَيْنَك وبينه؟ قالت: كان يُجْرِى عليَّ في كلِّ أضْحىً درهمًا! فقالت: وقد قَطَعه أيضًا! فقالتْ لها المرأةُ: وما كان يُجْرى عليكِ إلاّ دِرْهمًا؟ قالتْ: ما كان يُجْري عليَّ إلاَّ ذاكِ. ولقد ربَّمَا أدْخَلَ أَضْحًى فى أَضْحًى! فقالتْ: فقلت: يا أمَّ فِيلَوَيْهِ، وكيفَ يُدْخِلُ أضحًى في أَضْحًى؟ قد يقولُ الناسُ: إنَّ فلانًا أدخَل شهرًا في شهرٍ، ويومًا في يومٍ، فأمَّا أضْحًى في أَضْحًى، فهذا شيءٌ لا يَشْرَكهُ فيه أحَدٌ!

(قِصَّةُ تَمَّامِ بنِ جَعْفَر)

كانَ تَمَّامُ بنُ جَعْفَر بخيلًا على الطعامِ، مُفْرِطَ البُخْلِ. وكانَ يُقْبِل علَى كلِّ مَنْ أَكَلَ خُبْزَه بكلِّ عِلَّةٍ، وَيُطَالبُه بِكُلِّ طَائِلةٍ، وحتَّى ربَّما استخرجَ عليه أنَّه لابنٌ، جلاَّدُ الدَّمِ.

وكانَ إنْ قالَ له نديمٌ له: ما في الأرضِ أَحَدٌ أَمْشَى مِنِّي، ولا علَى ظهرِهَا أحدٌ أقْوَى على الحُضْرِ[2] منِّي! قالَ: وما يمنعكَ مِنْ ذَلكَ، وأنتَ تأكُلُ أكْلَ عَشَرةٍ؟ وهل يَحْمِلُ الرِّجْلَ إلاَّ البَطْنُ؟ لا حَمِدَ اللهُ مَنْ يَحْمَدُك!

فإنْ قالَ: لا واللهِ إنْ أقْدِرُ أَنْ أَمْشِيَ، لأنِّي أضعفُ الخَلْقِ عَنْه، وإنِّي لأنْبَهِرُ[3] مِنْ مَشْى ثلاثينَ خَطْوة! قالَ: وكَيْفَ تمْشِي وقدْ جعلتَ في بطنِكَ ما يَحْمِلُه عِشْرُونَ حمَّالا! وهل يَنْطَلِقُ الناسُ إلاَّ مع خِفَّةِ الأكْلِ؟ وَأَيُّ بَطِينٍ يَقْدِرُ علىَ الحَرَكةِ؟ وإنَّ الكَظِيظَ[4] لَيَعْجِزُ عن الرُّكوعِ والسُّجودِ، فكيفَ بِالمَشْيِ النَّكِيرِ!

فإنْ شَكَا ضِرْسَه وَقالَ: ما نِمْتُ البارحَةَ مع وَجَعِه وَضَرَبانِه، قالَ: عجبتُ كيفَ اشتكيتَ واحدًا، وكيفَ لم تَشْتَكِ الجميعَ! وكيفَ بَقِيتْ إلىَ اليوم في فيكَ حَاكَّةٌ! وأيُّ ضِرْسٍ يَقْوَى علىَ الدَّرْسِ والطَّحنِ! واللهَ إنَّ الأرْحاءَ السُّورِيَّةَ لَتكِلُّ، وإنَّ المِيجانَ الغليظ لَيُتْعِبُه الدَّقُّ! ولقدْ استبطأتُ

---

(١) الأسقاط: ردىء المتاع والطعام وحقيره.

(٢) الحُضر: عَدْو ذو وثب. (٣) أنبهر: يعتريني تتابع النفس من الإعياء. (٤) الكَظِيظ: المملوء من الطعام.

لكَ هذه العِلّة! ارفُقْ، فإنَّ الرِّفقَ يُمْنٌ، ولا تَخْرَقْ بنفسِكَ، فإنَّ الخُرْقَ شُؤْمٌ!

وإنْ قالَ: لا واللهِ، إنِ اشتكيتُ ضِرسًا لي قَطُّ، ولا تَجَلْجَلَ لي سِنٌّ عن مَوْضعِهِ منذُ عرفتُ نَفْسِي، قالَ: يا مَجنونُ! لأنَّ كثرةَ المَضْغِ تشُدُّ العُمُورَ[1]، وتُقَوِّي الأسنانَ، وتَدْبُغُ اللِّثةَ، وتَغْذُو أصُولَها، وإعفاءُ الأضراسِ من المَضْغِ يُريحُها. وإنَّما الفَمُ جُزْءٌ منَ الإنْسانِ. وكما أنَّ الإنسانَ نَفْسَه إذَا تحرَّكَ وَعَمِلَ قَوِيَ، وإذَا طَالَ سُكُونُه تَفَتَّخَ[2] واسترْخَى، فكذلكَ الأضْراسُ. ولكنْ رِفْقًا! فإنّ الإتْعابَ يَنْقُصُ القُوَّةَ. ولكلِّ شيءٍ مِقْدارٌ ونهايةٌ. فهذا ضِرْسُكَ لا تشتكِيهِ، بطنُكَ أيضًا لا تَشْتَكِيهِ؟

فإنْ قالَ: واللهِ إنْ أرْوَى منَ الماءِ، وما أظنُّ أنَّ في الدنيَا أَحَدًا أَشْرَبَ منِّي للماءِ، قالَ: لاَ بُدَّ للترابِ مِنْ ماءٍ، ولا بُدَّ للطينِ منْ ماءٍ يَبُلُّه ويُرْوِيهِ. أَوَلَيْستِ الحاجةُ علَى قَدْرِ كَثْرتِه وقِلَّتِهِ؟ واللهِ لو شَرِبتَ مَاءَ الفُرَاتِ ما استكثرتُه لكَ، معَ ما أرَى منْ شِدَّةِ أَكْلِكَ، وعِظَمِ لُقْمَتِكَ! تَدْرِي ما قدْ تصنَعُ؟ أنتَ واللهِ تَلْعَبُ! أنتَ لستَ ترى نَفْسَكَ! فَسَلْ عنكَ مَنْ يَصْدُقُكَ، حتَّى تَعْلَمَ أنَّ مَاءَ دِجْلَةَ يَقْصُر عمَّا في جَوْفِكَ!

فإنْ قالَ : ما شربتُ اليومَ ماءَ البتَّةَ، وما شربتُ أمْسِ بمقدارِ نِصْفِ رِطْلٍ، وما في الأرضِ إنسانٌ أقلُّ شُرْبًا منِّي للماءِ، قالَ: لأنَّك لا تَدَعُ لِشُربِ الماءِ مَوْضِعًا! ولأنَّك تَكْنُزُ في جوفِكَ كنزًا لا يجدُ الماءُ معهُ مَدْخَلًا! والعجبُ لا تَتَّخِمُ؛ لأنَّ مَنْ لا يشربُ الماءَ على الخُوانِ لا يَدْرِي مقدارَ ما أَكلَ، ومَنْ جاوزَ مقْدارَ الكفايَةِ كانَ حريًّا بالتُّخَمَةِ.

فإنْ قالَ : ما أنامُ اللَّيلَ كلَّهُ، وقدْ أهلكَنِي الأَرَقُ، قالَ: وتدعُكَ الكظَّةُ والنَّفْخَةُ والقَرْقَرَةُ[3] أن تنامَ؟ واللهِ لوْ لم يكنْ إلا العَطشُ الذِي يُنَبِّهُ الناسَ لَمَا نِمْتَ. وَمَنْ شَرِبَ كثيرًا بَالَ كثيرًا. ومَنْ كان الليلَ كلَّه بين شُرْب وبَوْلٍ كَيفَ يأخُذُه النَّومُ؟

فإنْ قالَ: ما هُو إلاَّ أنْ أضَعَ رَأْسِي، فإنَّما أنَا حَجَرٌ مُلْقًى إلَى الصُّبْحِ، قالَ: ذَلِكَ لأَنَّ الطعامَ يُسَكِّنُ ويُخَدِّرُ ويُحَيِّرُ، ويَبُلُّ الدِّماغَ، ويَبُلُّ العُرُوقَ، ويَسْتَرْخِي عليه جميعُ البدنِ. ولو كانَ في الحقِّ، لكانَ ينبغِي أنْ تَنَام اللَّيلَ والنَّهارَ!

فإنْ قالَ: أصبحتُ وأنَا لاَ أشتَهِي شيئًا، قالَ: إيَّاكَ أنْ تأكلَ قليلًا ولا كَثيرًا؛ فإنَّ أكْلَ القليلِ علَى غَيْرِ شَهْوةٍ، أَضَرُّ منَ الكثيرِ معَ الشَّهْوةِ. قالَ الخوانُ: ويْلٌ لِي مِمَّنْ قالَ: لا أُرِيدُ! وبعْدُ، وكيفَ تَشْتَهِي الطَّعامَ اليومَ، وأنتَ قدْ أكلتَ بالأمْسِ طعامَ عَشَرةٍ!

وكانَ كثيرًا ما يَقُولُ لتُدَمَائِه: إيَّاكُمْ والأكْلَ علَى الخُمَارِ، فإنَّ دَواءَ الخُمَارِ الشرابُ. الخُمَارُ

---

(١) العُمُور : جمع عمر ، وهو لحم اللثة .

(٢) تفتخ : لان واسترخى .

(٣) القرقرة : صوت البطن .

تُخَمَةٌ. والمُتْخَمُ إذَا أَكلَ ماتَ لا مَحَالةَ. وإيَّاكم والإكْثَارَ في عَقِب الحِجامة[1] والفَصْدِ[2] والحَمَّام. وعليكم بالتخفيفِ في الصيفِ كلِّه. واجتنبُوا اللَّحْم خاصَّةً.

وكانَ يقولُ: ليسَ يُفسِدُ النَّاسَ إلاَّ الناسُ: هذَا الذِي يتكلَّمُ بالكلامِ البارِدِ، وبالطُّرَفِ المُسْتَنكَرَةِ، لوْ لم يُصِبْ مَنْ يضْحَكُ لَهُ، وبعضِ من يَشْكُره ويَتضَاحَكُ له - أَوَ لَيْسَ هُوَ عِنْدَهُ إلاَّ أنْ يَظْهَرَ العُجْبُ بهِ؟- لَمَا تَكَلَّفُ النَّوادِرَ. ألاَ أَهْلَكَ قولُ النَّاسِ للأَكُولِ النَّهِم، وللرَّغِيبِ الشَّرِهِ: فلانٌ حَسَنُ الأَكْلِ! هُو الذِي أهلكَهُ، وزادَ في رَغْبَتِهِ، حتَّى جَعَلَ ذلكَ صِناعةً، وحتَّى ربَّما أكلَ - لمكانِ قَوْلِهم وتَقْرِيبِهم وتعجُّبِهم - ما لاَ يُطِيقُه فَيُقْتَلُ. فلاَ يزالُ قدْ هَجَمَ على قومٍ، فأَكَلَ زادَهُم، وتركَهُم بلاَ زادٍ!

فلو قَالُوا بَدَلَ قولِهم: فلانٌ حَسَنُ الأَكْلِ: فلانٌ أقبحُ النَّاس أكْلًا، كانَ ذَلِكَ صلاحًا لِفَريقَين.

ولاَ يزالُ البخيلُ علَى الطعَامِ قدْ دَعا الرَّغيبَ البَطِنَ، واتَّخذَ لهُ الطعامَ الطيِّبَ، ليَنْفِي عن نفسهِ المقَالةَ، وليُكَذِّبَ عن نفسهِ تلكَ الظنون.

ولو كانَ شدَّةُ الضَّرْسِ يُعَدُّ في المنَاقِبِ، وَيُمْدَحُ صاحبُه في المجالِس، لكانَ الأنبياءُ آكَلَ الخَلْقِ، ولخَصَّهمُ اللهُ - جلَّ ذكرُه- من الرَّغْبِ بِمَا لم يُعْطِه أَحَدًا منَ العالَمينَ. وكيفَ؟ وفي مأْثورِ الحديثِ: «إنَّ المؤمِنَ يأكلُ في مِعًى واحدٍ، وإنَّ المُنَافِقَ يأكلُ في سَبْعةِ أمعاءٍ»[3].

أَوَلَسْنَا قدْ نراهُم يَشْتِمُونَ بالنَّهَم، وبالرَّغْبِ، وبكثرةِ الأَكْلِ؛ ويمدحُونَ بالزَّهادَة، وبقلَّة الطَّعَام؟ أَوَلَيْسَ قدْ قالَ النبيُّ صلى اللهَ عليهِ وسلَّم: مَنْ أَدُلُّه على الحَسْناء القَتِينِ[4]؟ وقد سابَّ رَجُلٌ أيُّوبَ بنَ سليمانَ بنِ عبدِ الملك، فقالَ في بَعْضِ ما يَسُبُّه: ماتتْ أُمُّكَ بَغَرًا[5]، وأبوك بَشَمًا[6]!

وبعدُ، فهلْ سمعتُم بأحدٍ قَطُّ فَخَرَ بشِدَّة أكلِ أبيهِ، فقالَ: أنَا ابنُ آكَلِ العرب؟ بل قد رأينَا أصحابَ النَّبِيذِ والفتْيَانَ يتَمدَّحونَ بكثرةِ الشُّربِ، كما يتمدَّحونَ بقلَّةِ الرِّزقِ. ولذلِكَ قالتْ العربُ: قالَ الشاعرُ:

تَكْفِيهِ فِلْذَةُ كَبْدٍ إنْ أَلَمَّ بِهَا ... منَ الشِّواءِ ويُرْوِي شُرْبَهُ الغُمَرُ[7]

وقالَ:

لا يَتَأَرَّى لِمَا فِي القِدْرِ يَطْلُبُهُ ... ولا تَراهُ أمامَ القَوْمِ يَقْتَفِرُ[8]

وقال:

---

(١) الحجامة: هي امتصاص الدم بالمحجم. (٢) الفصد: إخراج مقدار من دم الوريد بقصد العلاج.

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة. باب المؤمن يأكل في معي واحد [٩/٤٤٦] ومسلم في الأشربة. باب المؤمن يأكل في معي واحد... [١٨٢ - ١٨٦] والترمذي وابن ماجة والدارمي وأحمد.

(٤) القتين: النحيفة. (٥) البغر: داء يشتد معه العطش. (٦) البشم: كثرة الأكل حتى التخم.

(٧) الغمر: القدح الصغير يشرب فيه الماء. (٨) يقتفر: يتعرق العظم حتى لا يبقى فيه شيئًا.

لا يَغْمِزُ السَّاقَ مِنْ أَيْنٍ ولا وَصَمٍ ولا يَعَضُّ على شُزْسُوفِه الصَّفَرُ[1]

والصَّفَرُ هي حيَّاتُ البطونِ، إنَّما تكونُ مِنَ الفُضولِ والتُّخَمِ، ومنَ الفسادِ والبَشَمِ.

وشَرِبَ مَرَّةً النبيذَ، وغنَّاه المغنِّي، فشقَّ قميصَهُ منَ الطَّرَبِ. فقالَ لِمَولًى لهُ يقالُ لهُ المَحْلُولُ، وهُو إلى جَنْبِهِ: شُقَّ أيضًا أنتَ - ويْلَكَ - قميصَك! - والمحلولُ هذًا منَ الآياتِ - قالَ : لا واللهِ، لا أشُقُّهُ، وليسَ لِي غَيْرُه. قالَ: فشُقَّه وأنَا أَكْسُوكَ غَدًا. قالَ : فأنا أشُقُّه غَدًا. قالَ: أنَا ما أَصْنَعُ بشَقِّكَ لهُ غَدًا؟ قالَ: وأنَا ما أرجُو مِنْ شَقِّهِ السَّاعةَ؟

فلم أسمعْ بإنْسانٍ قَطُّ يُقَايِسُ ويُنَاظِرُ في الوقتِ الَّذي إنَّما يُشَقُّ فيه القَمِيصُ مِنْ غَلَبَةِ الطَّرَبِ، غَيرِه وغيرِ مَوْلاه مَحْلُولٍ.

(هاتي غداء)

دخلَ عليٌّ الأَعْمَى علَى يوسفَ بنِ كلٍّ خَيْرٍ، وقدْ تغدَّى. فقالَ: يا جاريةُ، هاتِي لأبِي الحَسَنِ غَدَاءً. قالتْ: لم يبقَ عندنَا شيءٌ. قالَ: هاتِي - وَيْلَكِ! - ما كانَ ، فليسَ من أبي الحَسَنِ حِشْمَةٌ!

ولم يشُكَّ عليٌّ أنَّه سَيُؤْتَى برغيفٍ مُلَطَّخٍ، وبرُقاقةٍ مُلَطَّخةٍ، وبِسُكُرٍ، وبَقيَّةِ مَرَقٍ، وبِعَرْقٍ، وبِفَضْلَةِ شِوَاءٍ، وببقايَا ما يَفْضُلُ في الجَامَاتِ[2] والسُّكُرُجاتِ[3].

فجاءتْ بِطَبَقٍ ليسَ عليهِ إلاَّ رغيفُ أُرْزٍ قاحِلٌ ، لا شيءَ غَيْرُه .

فلمَّا وضَعُوا الخِوانَ بينَ يديهِ فأجالَ يَدَه فيهِ، وهُو أعْمَى ، فلم يقعْ إلاَّ علَى ذلكَ الرغيفِ ، وقد علِم أنَّ قولَه : (ليسَ منْهُ حِشْمةٌ) لا يكونُ إلاَّ معَ القَلِيلِ. فلمْ يظنَّ أنَّ الأمرَ بَلَغَ ذلكَ. فلمَّا لمْ يجدْ غيرَهُ قالَ: ويْلكُمْ! ولأَكْلِ هذا (بمرّه) رفعتُم الحِشْمَةَ كلَّها؟ والكلامُ لمْ يقَعْ إلاَّ علَى هذَا؟

(الغزّال أعجوبة في البخل)

حدَّثَني محمدُ بنُ حسَّان الأَسْوَد[4]، قالَ: أخبرني زكريَّا القَطَّانُ، قالَ: كانَ للغَزَّالِ قِطْعَةُ أَرضٍ قُدَّامَ حانُوتِي، فأَكْرَى نَصْفَها مِنْ سَمَّاكٍ يُسْقِطُ عنهُ ما استطاعَ منْ مُؤْنةِ الكِراءِ .

---

(١) الأبيات الثلاثة من قصيدة لأعشى باهلة يرثي بها أخاه المنتشر بن وهب. وترتيبها في القصيدة كالآتي : ٣٤، ٣٢، ٣٣، وروايتها :

تَكْفِيهِ حُزَّةُ فِلْذٍ إن أَلَمَّ بِهَا ... مِن الشِّواء ويَكْفِي شُرْبَه الغُمَرُ

لاَ يَتْأَرَى لِما في القِدْر يَرْقُبُه ... ولاَ يَعَضُّ على شُرْسُوفِه الصَّفَرُ

لا يَغْمِزُ السَّاقَ مِن أَيْنٍ ولا نَصَبٍ ... ولا يَزَال أمامَ القَوم يَقْتَفِرُ

[انظر الصبح المنير في شعر أبي بصير الأعشى والأعشين الآخرين / ٢٦٨] .

(٢) الجَامَات : جمع جَامَة وهي الإناء من الفضة أو نحوها يكون للشراب والطعام .

(٣) السُّكُرُجات : السُّكُرُجة إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم .

(٤) محمّد بن حَسَّان الضبي : أديب من ولاة الأعمال ، له شعر . أدّب أولاد المأمون العباسي ، فولاه مظالم الجزيرة وقنسرين والعواصم والثغور (سنة ١٦٥ هـ) ثم زاد مظالم الموصل وأرمينية . وولاه المعتصم مظالم الرقة (سنة ٢٢٤هـ) وأقره الواثق عليها . الأعلام[٦/ ٨٠] .

قالَ: وكانَ الغزَّالُ أعْجُوبةً في البُخْلِ. وكانَ يجيءُ منْ منزلِهِ ومعهُ رغيفٌ في كُمِّه. فكانَ أكْثَرَ دَهْرِهِ يأكُلُهُ بلاَ أُدْمٍ. فإذَا أعْيَا عليه الأمْرُ، أخذَ منْ ساكِنهِ جُوَافةً[1] بِحَبَّةٍ، وأثْبَتَ عليهَا فَلْسًا في حسابِهِ!

فإذَا أرادَ أنْ يتغدَّى أخذَ الجُوَافَةَ فمسحَهَا علَى وَجْهِ الرَّغيفِ، ثُمَّ عَضَّ عليهِ! وربمَّا فَتَحَ بَطْنَ الجُوَافَة، فَيَطُرُّ جَنْبَيْهَا وبطنَها باللُّقْمَةِ بعدَ اللُّقمَةِ! فَإذَا خافَ أنْ يَنْهَكَهَا ذلِكَ، ويَنْضَمَّ بطنُها، طلبَ منْ ذَلِكَ السَّماكِ شيئًا مِنْ مِلْحِ السَّمَكِ، فَحَشَا جَوْفَها ليَنْفُخَها، وليُوهِمَ أنَّ هذَا هُو مِلْحُها الَّذي مُلِحَتْ بِهِ!

ولربَّما غلبتْه شَهْوتُه فَكَدَمَ طَرَفَ أنْفِها، وأخَذ مِنْ طَرَفِ الأرْنَبَةِ[2] ما يُسيغُ بِهِ لُقْمَتَهُ! وكانَ ذلكَ منهُ لاَ يكونُ إلاَّ في آخِرِ لُقْمَةٍ، لِيَطيبَ فمُهُ بهَا! ثم يَضَعُها في ناحيَةٍ.

فَإذَا اشْتَرَى منَ امرأةٍ غَزْلًا أدخلَ تلكَ الجُوَافَةَ في ثَمَنِ الْغَزْلِ، مِنْ طريقِ إدْخَالِ العُرُوضِ، وحَسَبَها عليهَا بفَلْسٍ، فيسترجعُ رأسَ المالِ، ويَفْضُلُ الأُدْمُ.

(ابن جُذَام الشَّبِيُّ وبخله)

ورَوَى أصحابُنا عنْ عبدِ اللهِ بنِ المُقَفَّعِ، قالَ: كانَ ابنُ جُذَامٍ الشَّبِيُّ يجلسُ إلَيَّ. وكانَ ربَّمَا انصرفَ مَعِي إلَى المنزلِ، فيتغدَّى معنَا، ويُقيمُ إلَى أن يُبْرِدَ.

وكنتُ أعرفُهُ بِشِدَّةِ البُخْلِ وكَثْرةِ المالِ. فألَحَّ عليَّ في الاستزارةِ، وصمَّمتُ عليهِ في الامتناعِ. فقالَ: جُعِلتُ فِدَاكَ! أنْتَ تظنُّ أنِّي مِمَّنْ يتكلَّفُ، وأنتَ تُشْفِقُ عليَّ! لاَ واللهِ! إنْ هِيَ إلاَّ كُسَيْراتٌ يابسةٌ ومِلْحٌ وماءُ الحُبِّ! فظننتُ أنَّه يريدُ اختلابِي[3] بِتَهْوِينِ الأمرِ عليهِ. وقُلْتُ: إنَّ هذَا كقولِ الرجلِ: يا غلامُ، أطعِمْنَا كِسْرةً، وأطعم السائلَ خمْسَ تَمَرَاتٍ. ومَعْنَاهُ أضعافُ ما وقعَ اللَّفْظُ عليهِ.

ومَا أظنُّ أنَّ أحَدًا يَدْعُو مِثْلِي إلَى الحَرْبِيَّةِ[4] مِنَ البَاطِنَةِ، ثُمَّ يأْتيهِ بِكسْراتٍ ومِلْحٍ.

فلمَّا صِرْتُ عندَه وقَرَّبه إلَيَّ، إذْ وقفَ سائلٌ بالبابِ، فَقالَ: أطْعِمُونَا مِمَّا تأكُلُونَ، أطْعَمكُم اللهُ منْ طَعَامِ الجنَّةِ! قالَ: بُورِكَ فيكَ! فأعَادَ الكلاَمَ، فأعَادَ عليهِ مثْلَ ذَلِكَ القَوْلِ. فأعادَ عليهِ السائلُ، فقالَ: اذهبْ - ويْلَكَ!- فقدْ ردُّوا عليكَ. فقالَ السائلُ: سُبْحانَ اللهِ! ما رأيتُ كاليومِ أحدًا يَرُدُّ مِنْ لُقْمةٍ، والطعامُ بيْن يديْهِ! قالَ: اذهَبْ- ويْلكَ!- وإلاَّ خرجتُ إليكَ واللهِ، فدقَقْتُ ساقَيْكَ! قالَ السائلُ: سُبْحَانَ اللهِ! يَنْهَى اللهُ أن يُنْهَر السائلُ، وأنْت تَدُقُّ ساقيْه! فقلتُ للسائلِ: اذهبْ وأَرِحْ نَفْسَكَ، فإنَّكَ لو تعرِفُ مِنْ صِدْقِ وَعِيدِه مِثْلَ الذي أعْرِفُ، لما وَقَفتَ طَرْفَةَ عَيْنٍ بعدَ رَدِّه إيَّاكَ!

---

(١) جُوَافة: نوع من السمك وليس من جيده.

(٢) الأرنبة: أرنبة الأنف: طرفه.

(٣) اختلابي: خداعي.

(٤) الحَرْبِيَّة: تقع بالجانب الغربي من بغداد.

(أبو يعقوب الذقنان وطعام الأيام)

وكانَ أبُو يعقوبَ الذَّقْنَانُ يقولُ : ما فاتَنِي اللَّحْمُ مُنْذُ ملكتُ المالَ .

وكان إذَا كانَ يومُ الجمعةِ اشْتَرَى لحمَ بَقَرٍ بِدِرْهَم، واشترى بَصَلا بدانِقٍ، وبَاذِنْجَانًا بِدانِق، وقَرْعَةً بدانِقٍ. فإذَا كانَ أيَّامُ الجَزَرِ فجَزَرٌ بدانِقٍ! وطَبَخَه كُلَّه سِكْبَاجًا[1]. فأكلَ وعِيالَهُ يومئذٍ خُبْزَهم بشيءٍ مِنْ رأسِ القِدْرِ، وما ينقطعُ في القِدْرِ منَ البصَلِ والبَاذِنْجانِ والجَزَرِ والقَرْعِ والشَّحْمِ واللحمِ. فإذَا كانَ يومُ السَّبْتِ ثَرَدُوا خبزَهُم في المَرَقِ. فإذَا كانَ يومُ الأحَدِ أكَلُوا البصَلَ. فإذَا كانَ يومُ الاثْنَينِ أكلُوا الجزرَ. فإذَا كانَ يومُ الثُّلاثَاءِ أكَلُوا القَرْعَ. فإذَا كانَ يومُ الأَرْبِعَاءِ أكلُوا الباذنجانَ. فإذا كانَ يومُ الخميسِ أكلُوا اللَّحمَ . فلهذَا كانَ يقولُ : ما فاتَنِي اللحمُ مُنْذُ ملكتُ المالَ !

(فرار من الدخان)

قالَ أصحابُنا : نزلنَا بناسٍ منْ أهلِ الجَزيرةِ، وإذَا هُمْ في بلادٍ باردةٍ، وإذَا حَطَبُهم شَرُّ حَطَبٍ، وإذَا الأرضُ كلُّها غابةٌ واحِدةٌ طَرْفَاءُ[2]. فقلنَا: ما في الأرضِ أَكْرَمُ منَ الطَّرْفَاءِ. قالُوا : هُو كريمٌ ، ومن كَرَمِه نَفِرُ . فقلنَا : وما الَّذِي تفرُّونَ منهُ؟ قالُوا: دخانُ الطرفَاءِ يَهْضِمُ الطعامَ، وعيالُنا كثيرٌ !

وقدْ عابَ ناسٌ أهلَ المازِحِ والمُدَيْرِ[3] بأمورٍ : منهَا أنَّ خُشْكَنَانَهم[4] منْ دقيقٍ شعيرٍ، وحَشْوَهُ الذِي فيه منَ الجَوْزِ والسُّكرِ، منْ دَقِيقِ خُشْكَارٍ.

وأهلُ المازِحِ لا يُعْرَفُونَ بالبُخْلِ. ولكنَّهم أسوأُ الناسِ حالًا . فتقديرهُم علَى قدْرِ عَيْشِهِم. وإنَّما نَحْكِي عنِ البُخَلاءِ الذينَ جَمَعُوا بينَ البُخْلِ واليُسْرِ، وبينَ خِصْبِ البلادِ وعيشِ أهْلِ الجَدْبِ. فأمَّا مَنْ يُضَيِّق علَى نفسهِ لأنَّه لا يَعرفُ إلاَّ الضِّيقَ، فليسَ سبيلُه سبيلَ القَوْمِ .

(معَ سُلَيمانَ الكُثْرِيِّ)

قالَ المكِّيُّ : كانَ لأبِي عمٍّ يقالُ له سُلَيْمانُ الْكُثْرِيُّ. سُمِّي بذلكَ لكثرة مالِهِ. وكانَ يُقَرِّبُني وأنَا صَبِيٌّ إلَى أنْ بَلَغْتُ. ولم يَهَبْ لي معَ ذلكَ التقريبِ شيئًا قطُّ. وكانَ قدْ جاوزَ في ذلكَ حدَّ البُخَلاءِ .

فدخلتُ عليهِ يومًا، وإذَا قُدَّامَه قِطَعُ دَارَصِينِيٍّ لا تَسْوَى قيراطًا. فلمَّا نَالَ حاجَتَهُ منهَا، مَدَدْتُ يَدِي لآخذَ منهَا قِطْعةً. فلمَّا نَظَر إليَّ قبضتُ يَدِي! فقالَ: لا تَنْقَبِضْ وانْبَسِطْ واسْتَرْسِلْ. ولْيَحْسُنْ ظَنُّكَ، فإنَّ حَالَكَ عِنْدِي علَى ما تُحِبُّ! فَخُذْهُ كلَّه، فهوَ لكَ بِزَوْبَرِه وبِحَذَافِيرِه[5]! وهُو لكَ جميعًا! نفسِي بذلكَ سَخِيَّةٌ! واللهُ يعلمُ أنِّي مَسْرورٌ بمَا وصلَ إليكَ منَ الخيرِ! فتركتُهُ بينَ يديْهِ، وقمتُ مِنْ

---

(١) السكباج : تقدم التعريف به . وهو لحم طبخ بخل .

(٢) طرفاء : الطرفاء شجر وما في الأرض أكرم منه يعني : أحسن منه من حيث إنه وقود .

(٣) المازح والمُدَيْر : موضعان قرب الرقة على نهر الفرات . (٤) خُشْكَنانهم : نوع من الكعك .

(٥) بِحَذَافِيره : بأسره كله وجوانبه ونواحيه ومثلها أيضًا بزوبره : أي بجمعيه : أي لم يترك منه شيئًا .

عندِه، وجعلتُ وَجْهِي كَمَا أنَا إلَى العِراقِ! فمَا رأيتُهُ وما رآنِي حتَّى ماتَ.

وقالَ المكِّيُّ : سَمِعَني سُلَيمَانُ وأنَا أُنشِد شِعْرَ امرِئِ القيس :

لَـنَـا غَـنَـمٌ نُـسَـوِّقُـهَـا غِـزَارٌ كَـأنَّ قُـرُونَ جِـلَّـتِـهَـا الـعِـصِـيُّ[1]

فَـنَـمْـلأُ بـيْـتَـنَـا أَقِـطًـا وسَـمْـنًـا وحَـسْـبُـكَ مِـن غِـنًـى شِـبَـعٌ وَرِيُّ[2]

قالَ : لو كانَ ذَكَرَ معَ هذا شيئًا منَ الكُسْوَةِ لكانَ جيِّدًا .

وهُو الذي قالَ ليحيَى بنِ خَالد حينَ نَقَبَ في أبِي قُبَيْس، وزادَ في دارِه: عَمَدْتَ إلى شَيْخ الجبال فَزَعزَعْتَه ، وثَلَمْتَ فيهِ .

وقالَ حينَ عُوتِبَ في قلَّةِ الضَّحكِ، وشدَّةِ القُطُوبِ: إنَّ الذِي يمنعني منَ الضَّحِكِ أنَّ الإنْسانَ أقربُ ما يكونُ منَ البَذْل، إذا ضَحِكَ، وطابتْ نَفْسُهُ!

(بُخل محفُوظ النَّقَّاش)

صَحِبَني محفوظٌ النَّقَّاشُ من مَسْجِد الجامِع ليلًا. فلمَّا صرتُ قُرْبَ منزلِهِ- وكانَ منزلُه أقْرَبَ إلى مَسجِد الجامِع منْ منزلِي - سألَنِي أنْ أبيتَ عندَه. وقالَ: أيْنَ تذهبُ في هذَا المَطَرِ والبَرْدِ، ومنزلِي منزلُكَ، وأنتَ في ظُلْمةٍ، وليسَ معكَ نارٌ؟ وعندِي لِبأٌ[3] لم يَرَ الناسُ مِثْلَه، وتمرٌ ناهِيكَ به جَوْدَةً، لا تَصْلُحُ إلاَّ لهُ!

فمِلْتُ معهُ، فأبطأَ ساعةً. ثُم جاءنِي بجَامِ لِبَإٍ وطَبَقِ تمرٍ . فلمَّا مَدَدْتُ قالَ : يا أبَا عثمانَ ، إنَّه لِبأٌ وغِلَظُهُ! وهُو الليل ورُكودُه! ثم لَيْلَةُ مطَرٍ ورُطوبةٍ. وأنتَ رجلٌ قدْ طعنتَ في السِّنِّ. ولم تزلْ تَشْكُو من الفالِجِ[4] طَرَفًا. وما زالَ الغَلِيلُ[5] يُسْرِعُ إليكَ. وأنتَ في الأصْلِ لستَ بصاحبِ عَشَاءٍ!

فإنْ أكلتَ اللِّبأَ ولم تُبالِغْ، كنتَ لا آكِلًا ولا تاركًا؛ وحَرَّشْتَ طِباعَكَ. ثم قطعتَ الأكلَ أشْهَى ما كانَ إليكَ. وإنْ بالغتَ، بِتْنا في ليلةِ سُوءٍ من الاهتمامِ بأمركَ، ولم نُعِدَّ لكَ نبيذًا ولا عَسَلًا.

وإنَّما قلتُ هذَا الكلامَ لِئلَّا تقولَ غدًا : كانَ وكانَ! واللهِ قد وقعتُ بين نابَيْ أسَدٍ[6]! لأنِّي لو لم أجِئكَ بهِ وقدْ ذكرتُه لكَ، قلتَ : بَخِلَ بهِ، وبَدَا له فيهِ. وإنْ جِئتُ بهِ ولم أحَذِّرْكَ منهُ، ولم أذَكِّرْكَ

---

(١) رواية الديوان للشطر الأول :

∴ ألا إنْ لا تَـكُـنْ إبِـلٌ فَـجِـعْـزَى ∴

(٢) رواية الديوان للشطر الأول :

∴ فَـتُـوبِـعُ أهْـلَـهَـا أَقِـطًـا وسَـمْـنًـا ∴

[ديوانه / ١٣٦ ، ١٣٧] .

(٣) لبأ : أول اللبن عند الولادة ، وقد سبق التعريف به .

(٤) الفالج : مرض يحدث في أحد شقي البدن طولاً فيعطل إحساسه وحركته . وطرفًا: أي شيئًا منه .

(٥) الغليل : شدة العطش . (٦) نابي أسد : شبه حاله بمن وقع بين نابي أسد فلا خلاص له من شر على كل حال .

كلَّ ما عليكَ فيهِ، قلتَ: لم يُشْفقْ عليَّ ولم يَنْصَحْ. فقد بَرِئتُ إليكَ منَ الأمرينِ جميعًا. وإنْ شئتَ فَأَكْلَةٌ وَمَوْتَةٌ! وإن شئتَ فبعضُ الاحتمالِ ونَوْمٌ علَى سلامةٍ!

فمَا ضَحِكْتُ قَطُّ كضَحِكِي تلكَ الليلةَ. ولقدْ أكلتُه جميعًا، فمَا هَضَمَه إلاَّ الضَّحِكُ والنَّشاطُ والسُّرورُ، فيما أَظُنُّ. ولو كانَ معِي مَنْ يَفْهَمُ طِيبَ ما تكلَّمَ به، لأتَى عليَّ الضَّحكُ، أو لقضَى عليَّ. ولكنَّ ضَحِكَ مَنْ كانَ وحْدَه لا يكونُ علَى شَطْرِ مُشَاركةِ الأصحابِ.

(أبو القماقم ومواقف مع المجتمع)

وقالَ أَبو القُمَاقِم: أَولُ الإصلاحِ ألاَّ يُرَدَّ ما صارَ في يَدِي لَكَ؛ فإنْ كانَ ما صارَ في يَدِي لي فهُو لِي، وإن لمْ يكنْ لِي فأنَا أَحَقُّ به مِمَّنْ صيَّرهُ في يَدِي! ومَنْ أخرجَ من يدِه شيئًا إلَى يَدِ غَيْرِه منْ غيرِ ضَرُورةٍ، فقدْ أَباحَهُ لمنْ صَيَّرهُ إليهِ! وتعريفُكَ إيَّاهُ مِثْلُ إباحتِه.

وقالتْ له امرأةٌ: وَيْحَكَ يا أَبَا القُماقِم! إنِّي قدْ تزوَّجتُ زوجًا نهاريًّا[1]، والساعةَ وقْتُه. وليستْ عليَّ هَيْبَةٌ. فاشْتَرِ لِي بهذَا الرَّغِيف آسًا[2]، وبهذا الفَلْسِ دُهْنًا[3]، فإنَّكَ تُؤْجَرُ! فعسَى اللهُ أن يُلْقِيَ محبَّتِي في قلبِهِ، فيرزُقَني علَى يدِك شيئًا أعيشُ به؛ فقدْ واللهِ ساءتْ حَالِي، وبَلَغَ المجهودُ منِّي - فأخذهُما، وجَعَلَه وجْهَه!

فرأتْه بعد أَيَّامٍ، فقالتْ: سبحانَ اللهِ! أمَّا رَحِمْتَني مِمَّا صنعتَ بِي! قالَ: وَيْحَكِ! سَقَطَ والله مِنِّي الفَلْسُ، فَمِنَ الغَمِّ أكلتُ الرَّغيفَ!

وتعشَّق واحدة، فلم يزل يتْبَعُها ويَبْكِي بَيْنَ يَدَيْها، حتى رَحِمتْه. وكانت مُكْثِرةً، وكان مُقِلاً. فاسْتَهْدَاها هَريسةً، وقالَ: أنتُم أحْذَقُ بهَا! فلما كانَ بَعْدَ أيام تَشَهَّى عليها رُءُوسًا. فلمّا كان بعدَ قليلٍ، طلبَ منها حَيْسَةً. فلما كانَ بعدَ ذلكَ، تشهَّى عليها طَفَيْشَلِيَّة[4]. قالت المرأةُ: رأيتُ عشقَ الناسِ يكونُ في القلبِ وفي الكبدِ وفي الأحشاءِ. وعشقُك أنتَ ليسَ يُجَاوِزُ معدتَك!

وقالَ أبُو الأَصْبَغ: ألحَّ أبو القُماقِم علَى قومٍ عِنْدَ الخِطْبة إليهِم، يسألُ عنْ مالِ امرأةٍ ويُحصيهِ، ويسألُ عنهُ. فقالُوا: قد أخبرناكَ بمالِها، فأنتَ أيُّ شيءٍ مالُك؟ قالَ: وما سؤالُكم عنْ مالِي؟ الذي لها يكفِيني ويكْفِيهَا!

(مع أهلِ الأُبُلَّةِ)

سمِعتُ شيخًا من مشايخ الأُبُلَّة[5] يزعمُ أنّ فقراءَ أهلِ البَصرةِ، أفضلُ منْ فقراءِ أهلِ الأُبُلَّةِ. قلتُ: بأيِّ شيءٍ فضَّلْتَهم؟ قالَ: هُمْ أشدُّ تعظيمًا للأغنياءِ، وأعْرَفُ بالواجِب.

---

(١) نهاريًا: المقصود أنه يزورها في منزلها نهارًا. (٢) الآسُ: نوع من الرياحين. (٣) دُهْنا: الدهن هنا الطيب.

(٤) الطفيشل: نوع من المرق، وقد سبق التعريف به. (٥) الأُبُلَّة: بلد قرب البصرة من جانبها البحري.

ووقعَ بين رجلين أُبُلِّيَّين كلامٌ، فَأَسمعَ أحدُهما صاحبَه كلامًا غليظًا، فردَّ عليهِ مثلَ كلامه. فرأيتُهم قد أنكروا ذلكَ إنكارًا شديدًا،ولم أر لذلك سببًا. فقلتُ: لِمَ أنكرتُم أن يقولَ له مثلَ ما قالَ؟ قالوا: لأنَّه أكثرُ منه مالًا. وإذا جوَّزنَا هذا له، جوَّزنا لفقرائِنا أن يكافِئوا أغنياءَنَا، ففي هذا الفسادُ كلُّه!

وقال حَمْدانُ بنُ صَبَّاح: كيفَ صارَ رِياحٌ يُسمِعُني ولا أُسْمِعُه؟ أفهو أكثرُ مالًا منِّي؟ ثم سكتَ. قالَ: ويكونُ الزائرُ من أهلِ البَصْرةِ عندَ الأُبُلِّيّ مقيمًا مطمئنًا. فإذا جاءَ المدُّ قالوا: ما رأينَا مدًّا قطُّ ارتفعَ ارتفاعَه. وما أطيبَ السَّيرَ في المدِّ! والسيرُ في المدِّ إلى البَصْرةِ، أطيبُ من السيرِ في الجَزْرِ إلى الأُبُلَّة! فلا يزالُونَ به حتَّى يَرى أنَّ من الرأيِ أن يغتنمَ ذلكَ المدَّ بعينِهِ!

(ابن الخاركيّ وبُخْله)

كانَ أحمدُ بنُ الخاركيّ بخيلًا، وكان نَفَّاجًا[1]. وهذا أغْيَظُ ما يكونُ. وكانَ يتخذُ لكلِّ جُبَّة أربعةَ أزرارٍ، ليُرِيَ الناسَ أنَّ عليه جُبَّتين، ويشتري الأعْذاق[2] والعَراجينَ[3] والسَّعَفَ[4] منَ الكَلاَّءِ[5]؛ فإذَا جاءَ الحمَّالُ إلى بابِهِ تركهُ ساعةً، يُوهِمُ الناسَ أنَّ له منَ الأَرَضِينَ ما يحتملُ أن يكونَ ذلكَ كلُّه منها.

وكانَ يكتري قُدُور الخمَّارينَ التي تكونُ للنبيذِ، ثم يتحرَّى أعظمَها، ويهرُبُ من الحمَّالين بالكراءِ؛ كي يصيحُوا بالبابِ: يشترون الدَّاذِيَّ[6] والسُّكَرَ، ويحبِسونَ الحمَّالين بالكِراءِ!

وليس في منزله رِطلُ دِبْسٍ!

وسمِع قولَ الشاعِرِ:

رَأَيْتُ الخُبزَ عَزَّ لَدَيْكَ حتَّى ... حَسِبْتُ الخُبزَ في جَوِّ السَّحابِ

وما رَوَّحْتَنَا لِتَذُبَّ عنَّا ... ولَكِنْ خِفْتَ مَرْزِئَةَ الذُّبابِ[7]

فقالَ: ولِمَ ذَبَّ عنهُم؟ لعنهُ الله! ما أعلَم إلاَّ أنَّه شهَّى إليهم الطعامَ، ونظفَ لهم القِصَاعَ، وفرَّغهُم له، وسخَّرهم عليه! ثم ألاَ تركَها تقعُ في قِصاعِهم، وتسقطُ على آنافِهم وعيونهم! وهو والله أهلٌ لما هُو أعظمُ من هذَا! كم تَرَوْنَ من مرةٍ قد أمرتُ الجاريةَ أن تُلْقِيَ في القصعة الذّبابةَ والذبابتينِ والثلاثةَ، حتى يتقزّزَ بعضُهم، ويكْفِيَ اللهُ شرَّه!

قالَ: وأمَّا قوله: (رأيتُ الخبزَ عزَّ لديكَ حتَّى) قال: فإن لم أُعِزَّ هذا الشيءَ الذي هو قِوامُ أهلِ

---

(١) نَفَّاجًا: الذي يفخر بما ليس عنده.

(٢) الأعذاق: جمع عِذق، وهو قنو النخلة الذي به البلح.

(٣) العراجين: جمع عرجون وهو العزق إذا يبس واعوج قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

(٤) السعف: أغصان النخل وهي بالخوص.

(٥) الكلاء: موضع بالبصرة به سوق.

(٦) الدّاذي: الخمر، وكذلك السكر.

(٧) هذان البيتان لمروان بن محمد المعروف بأبي الشمقمق. وقد تقدما.

الأرضِ، وأصلُ الأقواتِ، وأميرُ الأغذيةِ، فأيُّ شيء أعِزُّ؟ إي واللهِ، إنِّي أعِزُّه وأعِزّه وأعِزّه وأعِزُّه، مدى النَّفَسِ، ما حملتْ عيني الماءَ.

وبلغ من نَفْجِه معَ ذلك، ما أخبرني به إبراهيمُ بنُ هانئ[1]، قال: كنتُ عنده يومًا إذْ مرَّ به بعضُ الباعةِ، فصاح الخوْخَ الخوخَ! فقلتُ: وقد جاء الخوخُ بعدُ؟ قالَ: نعمْ، قدْ جاءَ وقد أكثرنَا منه. فدعاني الغيظُ عليهِ إلى أنْ دعوتُ البيَّاعَ، وأقبلتُ علَى ابن الخارَكيِّ، فقلتُ: ويحكَ! نحنُ لم نسمعْ به بعدُ، وأنتَ قد أكثرتَ منه! وقد تعلمُ أنَّ أصحابَنا أتْرَفُ منكَ!

ثم أقبلتُ على البيَّاع فقلتُ: كيفَ تبيعُ الخوخ؟ فقالَ: ستَّةٌ بدرهم، قلتُ: أنتَ ممنَ يشتري ستّ خَوْخَاتٍ بدرهم، وأنتَ تعلمُ أنهُ يباعُ بعد أيَّامٍ مائتين بدرهم؟ ثم تقولُ: وقد أكثرنَا منهُ، وهذا يقولُ: ستّة بدرهمٍ؟ قَال: وأيُّ شيءٍ أرخصُ من ستَّةِ أشياءَ بشيءٍ؟

(البخل في النفط)

كانَ غلامُ صالِحِ بنِ عفَّان يطلبُ منه نِفْطًا لبيت الحِمار بالليلِ. فكانَ يعطيه كلَّ ليلةٍ ثلاثةَ أفْلُسٍ- والفُلُوسُ أربعةٌ طَسُّوجٌ - ويقولُ: طَسوجٌ يَفْضُل وحبّةٌ تنقُصُ، وبينهما يرمي الرَّامي!

وكانَ يقولُ لابنهِ: تُعطِي صاحِبَ الحمَّام وصاحبَ المِعْبَر لكلّ واحدٍ منهما طَسُّوجًا، وهو إذا لم يرَ معكَ إلاَّ ثلاثةَ أفلُس لم يردَّك؟

(نصيحة بخيل)

قالَ أبو كَعبٍ: دَعَا مُوسَى بنُ جَناح جماعةً منْ جيرانِهِ ليُفطِروا عندَه في شهرِ رمضانَ. وكنتُ فيهم. فلمَّا صلَّينا المغربَ، ونَجَز ابنُ جَناحٍ، أقبلَ علينَا ثم قالَ: لا تَعْجَلوا، فإنَّ العجلةَ منَ الشيطان. وكيفَ لا تعجلونَ وقدْ قالَ اللهَ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] ، وقالَ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ؟ - اسمعُوا ما أقولُ، فإنَّ فيما أقولُ حُسْنَ المُؤاكلةِ، والبعدَ منَ الأَثَرَةِ، والعاقبةَ الرَّشِيدةَ، والسِّيرةَ المحمودةَ. وإذَا مدَّ أحدُكُم يَدهُ إلَى الماءِ فاستسقَى - وقد أتيتُم بِبَهَطَّةٍ[2]، أو بِجُوذابةٍ[3]، أو بعَصِيدةٍ، أو ببعضِ ما يجرِي في الحلقِ ولا يُساغُ بالماءِ، ولا يُحتاجُ فيه إلَى مضغٍ، وهُو طعامُ يدٍ لا طعامُ يدَيْنِ، وليستْ على أهلِ اليدِ منه مُؤْنةٌ، وهو ممَّا يذهبُ سريعًا- فأمسكُوا، حتَّى يفرُغَ صاحبُكُم؛ فإنَّكم تجمعونَ عليه خِصالًا: منهَا، أنَّكُم تنغِّصُون عليهِ بتلكَ السرعةِ، إذا علمَ أنَّه لا يفرُغُ إلاَّ مع فراغِكُم. ومنهَا، أنَّكم تَحْنُقونَه ولا يجدُ بُدًّا منْ مكافأتِكم؛ فلعلَّه

(١) إبراهيم بن هانئ: أحد معاصري الجاحظ، روى عنه أخبارًا في الحيوان، وخبرًا في البخلاء.

(٢) بهطة: أرز مطبوخ باللبن والسمن. (٣) بجوذابة: الجوذاب: طعام من سكر ولحم وأرز.

أن يتسرَّعَ إلى لُقْمةٍ حارَّة فيموتَ وأنتم ترونَه. وأدنَى ذلك أن تبعثُوه علَى الحِرصِ، وعلَى عِظَم اللُّقَم. ولهذَا ما قالَ الأعرابيُّ حينَ قيلَ لهُ : لِمَ تبدأُ بأكلِ اللحمِ الذي فوقَ الثَّريدِ؟ قالَ : لأنَّ اللحمَ ظاعنٌ ، والثريدَ مقيمٌ !

وأنَا وإن كانَ الطعامُ طعامِي فإنِّي كذلكَ أفعلُ. فإذَا رأيتُم فِعْلِي مخالِفَ قولِي، فلا طاعةَ لي عليكُم.

قالَ أبو كَعْب: فربَّما نَسِي بعضُنا، فمدَّ يدَه إلى القصعةِ، وقد مدَّ يَدَه صاحبُه إلى الماءِ، فيقولُ له موسَى : يَدَكَ يا ناسِي! ولولا شيءٌ لقلتُ لكَ : يا مُتَغافِلُ !

قالَ : وأتانا بأُرُزَّةٍ. ولو شَاء إنسان أن يعدَّ حَبَّها لعدَّه، لتَفَرُّقه ولقِلَّتِه. قال : فنثروا عليها ليلةً منْ ذلكَ مِقْدارَ نصفِ سُكُرةٍ. فوقعتْ ليلتَئذٍ في فمي قطعةٌ ، وكنتُ إلى جنبه ، فسمِعَ صوتَها حينَ مضغتُها، فضربَ يدَه على جنبِي، ثم قالَ : اجْرُش يا أبا كَعبٍ اجرشْ! قلتُ : ويلَكَ! أمَا تتَّقِي اللهَ! كيفَ أجْرُش جزءًا لا يتجزَّأ ؟.

(قِصَّةُ ابنِ العُقْدِيِّ)

كانَ ابنُ العقديِّ ربَّما استزارَ أصحابَه إلى البستانِ. وكنتُ لا أظنُّهُ ممنْ يحتملُ قلبُه ذلكَ على حالٍ. فسألتُ ذاتَ يوم بعضَ زُوَّارِه، فقلتُ: احكِ لِي أمرَكُم. قالَ: وتستُر عليَّ؟ قلتُ: نعمْ ، ما دمتُ بالبَصرةِ .

قالَ : يشتَرِي لنَا أُرُزًّا بقشرِه، ويحملُه معهُ ، ليسَ معه شيءٌ ممَّا خلقَ اللهُ إلاَّ ذلكَ الأُرُزُّ! فإذا صرنَا إلى أرضِهِ، كلَّف أكَّارهُ أنَّ يجِشَّه[1] في مِجَشَّةٍ له، ثم ذَرّاه، ثم غربلَه، ثم جَشَّ الواشَّ منه. فإذا فرغَ منَ الشراءِ والحملِ، ثم من الجشِّ ، ثُم منَ التذريةِ، ثُم منَ الإدارةِ والغربلةِ، ثُم من جَشِّ الواشِّ، ثُم من تذريتِهِ، ثُم من إدارتِهِ وغربلتِهِ، كلَّفَ الأكَّارَ أنْ يطحنَهُ علَى ثورِهِ وفي رَحاهُ. فإذا طحنهُ، كلَّفهُ أنْ يُغْلِيَ لهُ الماءَ، وأنْ يحتطبَ لهُ. ثُم يكلِّفُهُ العَجْنَ؛ لأنَّه بالماءِ الحارِّ أكثرَ نَزَلا[2]. ثم كلَّف الأكَّارَ أن يخبزهُ .

وقبلَ ذلِكَ ما قد كلَّفهُم أن ينصِبُوا له الشُّصُوصَ[3] للسمَكِ، ويَشكُروا[4] الدرْياجة علَى صغارِ السمَكِ، لا يَدْخلُوا في السواقِي، فَيُدخلُوا أَيديَهُم في جِحرَةِ الشلابيِّ[5] والرُّمّانِ. فإنْ أصبْنَا منَ السمكِ شيئًا جعلَه كبَابًا على نارِ الخبزِ تحتَ الطابَقِ، حتَّى لا يحتاجَ منَ الحطَبِ إلَى كثيرٍ .

فلاَ نزالُ منذ غُدْوةٍ إلى اللَّيلِ في كدٍّ وجوعٍ وانتظارٍ. ثُم لا يكونُ عَشاؤُنا إلاَّ خُبْزَ أرزٍ أسودَ غيرِ

---

(١) يجشه : يدقه ويكسره .
(٢) نزلاً : طعام كثير : أى كثير البركة .
(٣) الشص : حديدة يصطاد بها السمك .
(٤) يسكروا : يسدون , وذلك لحجز السمك .
(٥) الشلابى والرمان : نوعان من السمك .

منخولٍ - بالشلاييّ . ولو قَدَرَ علَى غير ذلكَ فعلَ .

قلتُ لهُ : فَلِمَ لا يتخذُ موضِعَ (مذارٍ) منْ بعضِ (دُقَاقِ) أرضهِ، فيذرِّيَ لَكُمُ الأُرزَ؟ ثم يكونُ الخيارُ في يدِه، إنْ أرادَ أنْ يعجِّلَ عليكُم الطعامَ أطعمكُم الفَرْدَ، أو إنْ أحبّ أنْ يتأنَّى ليطعمكُم الجوهريَّ.

قالَ : واللهِ لَئِنْ سمِعَ هذَا وعَرَفهُ ليتكلّفنَّه . اللهَ اللهَ فِينَا، فإنَّا قومٌ مساكينُ! ولو قَدرْنا علَى شيءٍ لم نحتملْ هذا البلاءَ!

(بخل إسماعيل بن غزوان)

حدَّثني المَكّيُّ قالَ : بتُّ عندَ إسماعيلَ بنِ غَزْوانَ. وإنَّما بيَّتني عندَه حينَ علم أنّي تعشّيتُ عندَ مُوَيْسٍ، وحملتُ معي قِرْبةَ نبيذٍ . فلمَّا مضَى منَ الليلِ أكثرُهُ، وركِبني النومُ، جعلتُ فِراشي البِساطَ، ومِرْفَقَتي يدِي، وليسَ في البيتِ إلاَّ مصلًّى له ومِرْفقةٌ ومِخَدَّةٌ. فأخذَ المِخَدَّةَ فرَمَى بها إليَّ، فأبيتُها ورددتُها عليه. وأبَى وأبَيْتُ. فقالَ : سبحانَ اللهِ! يكونُ أن تتوسَّدَ مِرْفَقكَ، وعندِي فَضْلُ مِخَدَّةٍ؟ فأخذتُها فوضعتُها تحتَ خَدِّي، فمنعني منَ النومِ إنكارِي للموضعِ، ويُبْس فِراشِي.

وظنَّ أنّي قدْ نمتُ. فجاء قليلًا قليلًا، حتى سلَّ المخدَّةَ من تحتِ رأسِي. فلمَّا رأيتُه قدْ مضَى بها ضحِكتُ، وقلتُ : قد كنتَ عنْ هذا غنيًّا! قالَ : إنَّما جئتُ لأُسوِّيَ رأسَكَ! قلتُ: إنِّي لم أكلِّمكَ حتَّى ولَّيْتَ بها. قالَ : كنتُ لهذا جئتُ، فلمّا صارتْ المخدَّةُ في يدِي نسِيتُ ما جئتُ له! والنبيذُ - ما علمتَ - واللهِ يَذْهبُ بالحِفظ[1] أجْمَعَ!

وحدّثني الحِزاميُّ والمكيُّ والعَروضيُّ، قالُوا: سمعنَا إسماعيلَ يقولُ : أَوَليسَ قدْ أجمعُوا على أنَّ البخلاءَ في الجُمْلَة، أعقلُ من الأسخياءِ في الجملةِ؟ ها نحنُ أُولاءِ عندَكَ جماعةً، فينَا مَنْ يزعمُ الناسُ أنَّه سخِيٌّ، وفينَا مَنْ يزعمُ الناسُ أنَّه بخيلٌ. فانظرْ أيُّ الفريقينِ أعقلُ؟ هأنَذَا وسهلُ بنُ هارونَ وخاقانُ بنُ صُبَيْحٍ وجعفرُ بنُ سعيدٍ والحِزاميُّ والعَروضِيُّ وأبو يعقوبَ الخُرَيْمِي، فهلْ معكَ إلاَّ أبو إسْحاق؟

وحدَّثني المكيُّ ، قالَ : قلتُ لإسماعيلَ مرّةً : لم أر أحدًا قطُّ أنفقَ علَى الناسِ منْ مالِه، فلمَّا احتاجَ إليهم آسَوْهُ[2]. قالَ : لو كانَ ما يصنعونَ للهِ رضًا، وللحقِّ موافقًا، لما جمعَ الله لهمُ الغدرَ واللؤمَ منْ أقطارِ الأرضِ. ولو كانَ هذَا الإنفاقُ في حقِّه لما ابتلاهُم اللهُ - جلَّ ذِكْرُه - منْ جميعِ خلقِهِ.

---

(١) بالحفظ : أى بالذاكرة . (٢) آسوه بماله : أناله منه .

(جار بخيل)

حدَّثني تمّامُ بنُ أبي نُعَيْم، قال : كانَ لنا جارٌ وكانَ له عُرْسٌ . فجعلَ طعامَه كلَّه فالُوذقًا[1]. فقيلَ له : إنَّ المُؤْنةَ تعظُم ، قالَ : أحتملُ ثِقَل الغُرْم بتعجيلِ الراحةِ، لعنَ الله النساءَ! ما أشكُّ أنَّ مَنْ أطاعهنَّ شرٌّ منهنَّ .

(خطاب البخيل للدرهم)

وحديثٌ سمِعناهُ على وجهِ الدهرِ : زعَمُوا أنَّ رجلًا قدْ بلغَ في البخلِ غَايتَه، وصارَ إمامًا، وأنَّه كانَ إذَا صارَ في يدِهِ الدرهمُ، خاطبهُ وناجاهُ، وفدَّاهُ[2] واستبطنهُ[3].

وكانَ ممَّا يقولُ لهُ : كمْ مِنْ أرضٍ قدْ قطعتَ! وكمْ مِنْ كيسٍ قدْ فارقتَ! وكم مِنْ خاملٍ رفعتَ! ومِنْ رفيعٍ قدْ أخملتَ! لكَ عندِي ألاَّ تعْرَى ولا تَضْحَى! - ثُمَّ يلقيهِ في كيسِهِ، ويقولُ له: اسكُن علَى اسمِ اللهِ في مكانٍ لا تُهانُ ولا تُذَلُّ ولا تُزْعَجُ منهُ[4]!- وأنَّه لم يُدخِلْ فيهِ درهمًا قطُّ فأخرجَه، وأنَّ أهلَه ألَحُّوا عليهِ في شَهْوةٍ، وأكثرُوا عليه في إنفاقِ دِرهمٍ، فدافعهُم، ما أمكنَ ذلكَ. ثُم حملَ درهمًا فقط. فبينَا هو ذاهبٌ إذْ رأى حَوّاءَ قدْ أرسل على نفسِهِ أفْعًى لدِرهَم يأخذُه. فقالَ في نفسِهِ: أتْلِفُ شيئًا تُبذلُ فيه النفسُ، بأكلةٍ أو شَرْبةٍ؟ والله ما هذَا إلاَّ موعظةٌ لِي من اللهِ! فرجَع إلى أهلِه، وردّ الدِّرهمَ إلى كيسِه - فكان أهلُه منهُ في بَلاءٍ. وكانوا يتَمَنّوْنَ موْتَه والخلاصَ بالموتِ أو الحياةِ.

فلما ماتَ وظنُّوا أنهُم قدْ استراحُوا منه، قدِم ابنه فاستولَى على مالِه ودارِهِ. ثم قالَ: ما كانَ أدْمُ أبِي؟ فإنَّ أكثرَ الفسادِ إنَّما يكونُ في الإدامِ. قالُوا: كان يَأتَدِمُ بجُبنةٍ عندهُ. قالَ: أرُونيها. فإذَا فيهَا حَزٌّ كالجدولِ، من أثرِ مسحِ اللقمةِ! قالَ : ما هذهِ الحفرةُ؟ قالوا كانَ لا يقطعُ الجُبْنَ، وإنَّما كانَ يمسحُ على ظهرِهِ فيحفِرُ، كما ترى! قالَ: فبهذا أهلكنِي، وبهذَا أقعدني هذا المَقْعَدَ! لو علمتُ ذلك ما صلّيتُ عليهِ!

قالُوا : فأنتَ كيفَ تريدُ أن تصنَع؟ قالَ : أضعُها مِن بعيدٍ، فأشيرُ إليها باللُّقْمةِ!

ولا يُعجبِني هذَا الحرفُ الأخيرُ[5]؛ لأنَّ الإفراطَ لا غايةَ له. وإنَّما نحكِي ما كانَ في الناسِ، وما يجوزُ أنْ يكونَ فيهم مثْلُهُ، أو حُجَّةً أو طريقةً. فأمَّا مثلُ هذا الحرفِ فليسَ مما نذكرهُ. وأمَّا سائرُ حديثِ هذا الرجل فإنَّه منَ البابةِ[6] .

---

(١) الفالوذق : حلواء تصنع من لب الحنطة أى القمح .

(٢) فدّاه: قال له جعلت فداك . (٣) استبطنه : عرف كل ما يتصل بهذا الدرهم ، وألم بكل ما فيه .

(٤) انظر نثر الدار (٣/ ٢٨٧) ونهاية الأرب (٣/ ٣٠٣) .

(٥) الحرف الأخير : يقصد الخبر والحكاية . (٦) البابة : الوجه والقبيل والنوع : أى حديثه من نوع ما نقصه .

(بخيل يهب النبيذ)

قالَ ابنُ جُهانةَ الثَّقَفِيَّةِ : عجِبْتُ ممنْ يمنعُ النبِيذَ طالبَهُ؛ لأنّ النبيذَ إنما يُطلبُ ليومِ فَصْدٍ، أو يومِ حِجامةٍ، أو يومِ زيارةِ زائرٍ، أو يومِ أكلِ سمكٍ طريٍّ، أو يومِ شَرْبَةِ دواءٍ. ولم نر أحدًا طلبه وعندَه نبيذٌ ، ولا ليدّخرهُ ويحتكرَه، ولا ليبيعَهُ ويعتقدَ منه. وهو شيءٌ يحسُن طلبُه، وتحسُن هِبتُه، ويحسُن موقِعُه. وهُو في الأصلِ كثيرٌ رخيصٌ، فما وجهُ منعِه؟، ما يمنعهُ عندي إلاَّ مَنْ لا حظَّ لهُ في أخلاقِ الكرامِ! وعلى أنّي لستُ أَوْجَلُ - بما أهَبُ منهُ - علَى نبيذِي النقصانَ؛ لأنّي إذَا احتجبْتُ عنْ نُدَمائِي بقدْرِ ما أخرجتُ منْ نبيذِي، رجعَ إليَّ نبيذِي على حالِه، وكنتُ قدْ تحمَّدتُ بما لاَ يضرُّني؛ فمنْ تركَ التحمُّدَ بما لاَ يضُرُّه، كان مِنَ التحمُّد بما يضرُّه أبعدَ.

فذَكر ابنُ جُهانَة مالَه من الكرمِ بهبةِ نبيذِهِ، ولم يذكر ما عليه من اللؤم بِحَجْبِ نُدَمائِهِ .

(أرادَ استِئصَالِي)

قالَ الأَصْمَعِيُّ أو غيرُه : حمَل بعضُ الناسِ مَدينيًّا على بِرْذَوْنٍ، فأقامهُ علَى الأَرِيِّ. فانتبه مِن نومِه، فوجدَه يعتلفُ. ثم نامَ فانتبهَ، فوجدهُ يعتلفُ. فصاحَ بغلامِه: يابنَ أمٍّ ! بِعْهُ، وإلاّ فَهَبْهُ، وإلاَّ فَرُدَّه، وإلاَّ فاذبحْه! أَنامُ ولا ينامُ! يذهبُ بِحُرِّ مالِي! ما أرادَ إلاَّ استئصالي!

(البخيلُ التّمارُ)

قالَ أبو الحسنِ المدائِنيُّ : كانَ بالمدائن[1] تمّارٌ ، وكان بخيلًا. وكان غلامُه إذا دخلَ الحانوتَ يحتالُ؛ فربَّما احْتَبَسَ. فاتَّهمه بأكْلِ التَّمرِ، فسألَهُ يومًا فأَنْكَر. فدعَا بقطنةٍ بيضاءَ، ثُم قالَ: امضُغْها. فمضغَها. فلمَّا أخرجَها وجدَ فيهَا حلاوةً وصُفْرةً، قالَ : هذَا دأبُك كلَّ يومٍ وأنا لا أعلمُ ! اخرجْ منْ دارِي!

(شدة بخل)

وكانَ عندنَا رجلٌ مِنْ بني أَسَدٍ ، إذَا صعدَ ابنُ الأَكَّارِ[2] إلَى نخلةٍ لهُ ليلقُطَ له رُطبًا، ملأَ فاهُ ماءً. فسخِرُوا بِهِ، وقالُوا لهُ : إنَّه يشربُه، ويأكلُ شيئًا علَى النخلةِ. فإذَا أرادَ أنْ ينزلَ بالَ في يدِه، ثم أمسكهُ في فيهِ! (والرطبُ أهونُ علَى أولادِ الأَكَرةِ، وعلى أولادِ غيرِ الأَكَرةِ، منْ أنْ يَحْتَمِلَ فيهِ أحدٌ شَطْرَ هذَا المكروهِ ولا بعضَه) . قالَ : فكانَ بعدَها يملأُ فاهُ من ماءٍ أصفرَ أو أحمرَ أو أخضرَ، لكي لا يقدرَ علَى مثْلِهِ في رءوسِ النخل!

---

(١) بالمدائن : مدينة كسرى قرب بغداد وسميت كذلك لكبرها .

(٢) الأكار : الزارع .

(ينتهر السائلَ)

وحدَّثني المصْريُّ ، وكانَ جارَ الداردريشيِّ، ومالُه لا يُحْصَى . قالَ : فانتهرَ سائلًا ذاتَ يوم وأنَا عندهُ. ثم وقفَ عليهِ آخرُ فانتهرهُ، إلاَّ أنَّ ذلكَ بغَيظٍ وحَنَقٍ. قالَ: فأقبلتُ عليه فقلتُ له: ما أبْغضَ إليكَ السؤَّالَ! قالَ : أجَلْ، عامَّةُ من تَرَى منهم أيسرُ منِّي. قالَ: فقلتُ : ما أظنُّك أبغضتَهم لهذَا. قالَ: كلُّ هؤلاءِ لو قَدَروا على دارِي لهدمُوهَا، وعلَى حياتِي لنزعُوها! أنا لو طاوعتُهم فأعطيتُهم كما سألُوني كنتُ قد صرتُ مثلَهم منذُ زمانٍ! فكيفَ تظنُّ بغضِي يكونُ لمن أرادَني على هذَا[1]؟

وكانَ أخُوه شريكَه في كلِّ شيءٍ. وكانَ في البخلِ مثلَه. فوضَع أخوه في يومِ جُمُعةٍ بين أيدينَا، ونحنُ على بابِه، طبقَ رُطبٍ يساوِي بالبَصْرةِ دانِقَيْنِ. فبينَا نحنُ نأكلُ إذ جاء أخوهُ، فلمْ يسلِّم ولم يتكلَّم، حتَّى دخلَ الدارَ. فأنكرنَا ذلكَ. وكانَ يُفرطُ في إظهَارِ البِشرِ، ويجعلُ البِشرَ وقايةً دونَ مالِهِ . وكانَ يعلمُ أنَّه إنْ جمعَ بينَ المنعِ والكِبْرِ قُتِل.

قالَ : ولم نعرف علَّته، ولم يعرفْها أخُوه. فلمَّا كانَ الجُمُعةُ الأُخرى، دعَا أيضًا أخوهُ بطبقِ رُطبٍ. فبينَا نحنُ نأكلُ، إذْ خرجَ مِنَ الدارِ ولم يسلِّم ولم يقفْ. فأنكرنَا ذلِك، ولم ندرِ أيضًا ما قصَّتُهُ. فلمَّا أن كانَ في الجُمُعةِ الثالثةِ، ورأَى مثلَ ذلك، كتبَ إلى أخيهِ:

يا أخِي! كانتِ الشَّركةُ بيني وبينَك حينَ لم يكثرْ الوَلَدُ، ومع الكثرةِ يقعُ الاختلافُ. ولستُ آمَنُ أن يخرجَ ولدِي وولدُك إلى مكروهٍ. وها هنَا أموالٌ باسمِي ولكَ شطرُها، وأموالٌ باسمكَ ولي شطرُها، وصامتٌ[2] في منزلِي، وصامتٌ في منزلكَ، لا نعرفُ فَضْلَ بعضِ ذلكَ على بعضٍ. وإن طرَقنا أمرُ اللهِ، ما ركَدَتِ الحربُ بين هؤلاءِ الفِئتَيْنِ، وطالَ الصخَبُ بين هؤلاءِ النسوةِ، فالرأي أن تتقدم اليومَ فيما يحسمُ منهم هذَا السَّببَ.

فلمَّا قرأَ أخُوه كتابَه تعاظَمَهُ ذلكَ وهالَه، وقلَّب الرأي ظهرًا لبطنٍ، فلم يَزدهُ التقليبُ إلاَّ جهلًا. فجمع وَلَده وغلُظَ عليهم، وقال : عسَى أن يكونَ أحدٌ منكُم قد أخطأَ بكلمةٍ واحدةٍ، أو يكونَ هذا البلاءُ من جرائرِ النساءِ.

فلمَّا عرَفَ براءةَ ساحةِ القومِ، تمشَّي إليهِ حافيًا راجلًا، فقالَ : ما يدعوكَ إلى القسمةِ والتمييزِ؟ أدْعُ صُلَحاءَ أهلِ المسجدِ الساعةَ، حتى أشهدَهم بأنِّي وكيلٌ لكَ في هذهِ الضِّياعِ، وحوِّل كلَّ شيءٍ في منزلِي إلى منزلكَ، وجرِّب ذلك منِّي الساعةَ. فإنْ وجدتَني أرُوغُ وأعتلُّ فَدُونَكَ - فحاجتِي الآن أن تخبرَني بذنبي. قال : مالكَ من ذنبٍ، وما مِن القسمةِ مِن بُدٍّ. فأقامَ عنده يُناشدُه إلى نصفِ النهارِ. ثم أقام يومَه ذلكَ إلى نصفِ الليلِ يُناشدُه، ويطلبُ إليه.

---

(١) أرادني : أي دفعني إليهذا البلاء .

(٢) صامت : الصامت من المال الذهب والفضة .

فلمَّا طالَ عليه الأمرُ، وبلغَ منه الجَهْدَ، قالَ له: حدِّثني عن وضعكَ أطباقَ الرُّطبِ، وبسْطِك الحُصُرَ في السِّكَك، وإحضارِك الماءَ البارِدَ، وجمعِك الناسَ على بابي في كلِّ جُمُعةٍ! كأنَّك ظننتَ أنَّا كنَّا عن هذه المَكْرُمة عُمْيا! إنَّك إذا أطعمتَهم اليومَ البَرْنيَّ[1]، أطعمتَهم غدًا السُّكَّرَ[2]، وبعد غد الهِلْبَاثَ[3]. ثم يصيرُ ذلك بعد أيَّام الجُمَع، في سائر أيَّام الأسبوع. ثم يتحوّلُ الرطبُ إلى الغَداءِ، ثم يؤدِّي الغَداءُ إلى العَشاءِ. ثم تصيرُ إلى الكِساءِ، ثم الأَجْداءِ، ثم الحُمْلانِ[4]، ثم اصطناعِ الصنائعِ! واللهَ إنِّي لأَرْثي لبيوتِ الأموالِ ولخرّاجِ المملكةِ من هذا، فكيفَ بمالِ تاجرٍ جَمَعه من الحبّاتِ والقراريطِ والدَّوانيقِ، والأرباعِ والأنصافِ؟

قالَ: جُعِلْتُ فداكَ! تريدُ ألاَّ آكُلَ رُطَبَةً أبدًا، فضلًا على غيرِ ذلك؟ وأخرى، فلا واللهِ لا كلَّمتُهم أبدًا! قالَ: إيَّاك أن تُخطئَ مرّتين: مَرَّةً في إطماعِهم فيك، ومرَّةً في اكتسابِ عَداوتِهم. أُخرُج من هذَا الأمرِ على حسابِ ما دخلتَ فيهِ، وتَسَلَّمْ تسلَمْ.

(الدجاجة المهداة)

كانَ أبو الهُذَيْلِ أهدَى إلى مُوَيْسٍ دَجاجةً. وكانت دَجاجتُه التي أهداهَا دونَ ما كانَ يُتَّخَذُ لمويسٍ. ولكنَّه بكرمِهِ وبحسنِ خُلُقِه أظهر التعجُّبَ من سِمَنها وطيبِ لحمِها. وكانَ يُعْرَفُ بالإمساكِ الشديدِ. فقالَ: وكيفَ رأيتَ يا أبا عمران تلكَ الدَّجاجة؟ قالَ: كانتْ عَجَبًا من العَجَبِ! فيقول: وتدري ما جنسُها؟ وتدري ما سنُّها؟ فإنَّ الدجَاجَة إنَّما تطيبُ بالجنسِ والسنِّ. وتدري بأيِّ شيءٍ كنَّا نسمِّنها؟ - فلا يزالُ في هذا، والآخَرُ يضحكُ ضحِكًا نعرفُه نحنُ، ولا يعرِفُه أبو الهذيلِ.

وكانَ أبو الهذيلِ أسلمَ الناسِ صدرًا، وأوْسعَهم خُلُقًا، وأسهلَهُم سُهُولةً. فإنْ ذكَروا دَجاجةً، قالَ: أيْن كانتْ يا أبَا عِمرانَ من تلكَ الدّجاجةِ؟ فإن ذكروا بطّةً أو عَناقًا[5] أو جَزُورًا أو بقرة، قال: فأين كانتْ هذهِ الجَزورُ في الجُزُرِ، من تلكَ الدْجَاجَة في الدجَاج؟ وإن استسمَن أبو الهذيلِ شيئًا من الطيرِ والبهائمِ، قال: لاَ واللهِ، ولا تلكَ الدّجاجة! وإن ذكَروا عُذوبةَ الشحمِ، قالَ: عُذوبةُ الشحمِ في البقرِ والبطِّ وبطونِ السمكِ والدّجاجِ، ولا سيَّما ذلكَ الجنسُ مِن الدَّجاجِ. وإنْ ذكروا ميلادَ شيءٍ أو قدومَ إنسانٍ، قالَ: كانَ ذلكَ بعدَ أنْ أهديتُها لكَ بسنة؛ وما كان بينَ قدومِ فلانٍ وبين البَعْثةِ بتلكَ الدّجاجةِ إلاَّ يومٌ.

وكانتْ مَثَلا في كلِّ شيءٍ، وتاريخًا في كلِّ شيءٍ!

---

(١) البرنى: نوع جيد من التمر مدور أحمر مشوب بصفرة.

(٢) السكر نوع من الرطب الجيد الطيب الشديد الحلاوة.

(٣) الهلباث: نوع من التمر.

(٤) الحملان: جمع حمل، وهو الصغير من أولاد الضأن.

(٥) عناقاً: الأنثى من أولاد المعز.

وأقبلَ مرّةً على محمدِ بن الجَهْم، وأنَا وأصحابُنا عندَه ، فقالَ : إنّي رجلٌ منخرق الكفَّين ، لا أليق شيئًا. ويدِي هذه صَناعٌ في الكَسبِ، ولكنَّها في الإنفاقِ خرقاءُ! كم تظنُّ من مائةِ ألفِ درهم قَسَمْتُها على الإخوانِ في مجلسِ؟ أبو عثمانَ يعلمُ ذلكَ! أسألُك بالله يا أبا عثمانَ هلْ تعلمُ ذلكَ؟ فقلتُ : يا أبا الهُذيلِ، ما نشكُّ فيما تقولُ - فلم يرضَ باحتضارِي هذا الكلامَ حتّى استشهدني، ولم يرضَ باستشهادِي حتى استحلفَني .

(إمام في البخل)

وكانَ أبو سَعيدِ المدَائنيُّ إمامًا في البخلِ عندنا بالبَصْرة . وكانَ من كبار المُعْتَنِين وميامسيرِهم. وكانَ شديدَ العقلِ، شديدَ العارضةِ[1] ، حاضرَ الحجَّة، بعيد الرَّويَّةِ.

وكنتُ أتعجّبُ من تفسيرِ أصحابنَا لقولِ العربِ في لُؤْم اللئيم الراضعِ :

قالَ أصحابُنا : كلُّ لئيم بخيلٌ ، وليسَ كلُّ بخيلٍ لئيمًا؛ لأنَّ اسمَ اللئيمِ يقعُ على البخلِ، وعلَى قلَّة الشكرِ، وعلَى مَهانةِ النفسِ، وعلى أنَّ له في ذلك عِرْقًا متقدّمًا.

قال أبو زيْد : هُو لئيمٌ ومَلأَم. فاللئيمُ ما فسّرتُ ، والمَلأَمُ الذي يقومُ بعذرِ اللئيم[2]. فأمَّا اللئيمُ الراضعُ، فالذي لا يحلُبُ في الإناءِ، ويرضَعُ الخلْف، مخافةَ أن يضيعَ من اللبنِ شيءٌ.

قال ثَوْبُ بنُ شَحْمَةَ العَنْبَرِيُّ[3] في امرأتِهِ الهَمْدانيَّةِ :

وحديثُ لامجةَ الَّتِي حدَّثتنِي ... تدعُ الإناءَ تَشَرُّبًا للقادِمِ

القادمانِ : الخِلْفان المقدَّمانِ .

فلمَّا بلغهُ ذلكَ عنها طلّقها . فلمَّا طلَّقها قيلَ له : إنَّ البخلَ إنَّما يَعيبُ الرجالَ، ومتَى سمِعْتَ بامرأةٍ هُجِيَتْ في البخلِ؟ قالَ : ليس ذلك بِي. أخاف أن تَلِدَ لي مثلَها.

قالَ رافعُ بنُ هُرَيْم[4] :

.. .. تحلُبُ قاعدًا ... وتَلْمُجُ أحيانًا وقَعْبُك حاضرُ

يدعُو اللهَ عليه أن يجعلَه صاحبَ شاءٍ[5] ، ولا يجعلَه صاحبَ إبلٍ ، وأن يرتضعَ من الخلْفِ، وإنْ كانَ معهُ إناءٌ . والعربيُّ يُمارِي (على) صاحبه فيقولُ : إنْ كنتَ كاذبًا، فاحتلبتَ قاعدًا : أي

---

(١) شديد العارضة : أى ذو بديهة ورأى جيد .

(٢) بعذر اللئيم : أى يدفع عنه الذم .

(٣) ثَوْب بن شَحْمة ، وقيل : صُحْمة . . . بن تميم ، وكان يقال له : مُجير الطير ، وذلك أنه كان يضع سهمه فى الأرض ، فلا يُصاد من تلك الأرض شىءٌ ، وزعموا أنه أسر حاتم بن عبد الله الطائى . [القاموس والتاج (ثوب) ، والمؤلف والمختلف للآمدى / ٩٢، ٩٣] .

(٤) رافع بن هُرَيْم ، شاعر قديم ، أدرك الإسلام . وله ديوان صغير . [خزانة الأدب ٤/ ٤٨١].

(٥) صاحب شاء : أى صاحب غنم .

أبدلكَ الله بكرمِ الإبلِ لؤمَ الغنمِ .

فكيفَ يُتَعَجَّبُ من لؤمِ الراضعِ، وصنعَ أبو سَعيد المدائنيُّ أعظمَ منْ ذلك؟ اصْطَبَغ[1] مِنْ دَنٍّ خَلٍّ ، وهو قائمٌ حتى فَنِيَ، ولم يُخرِج منه قليلًا ولا كثيرًا.

وكانتْ له حَلْقةٌ يقعدُ فيها أصحابُ الغُنْية والبخلاءُ الذينَ يتذاكرون الإصلاحَ. فبلغهُم أنَّ أبا سعيد يأتي الحَرْبيَّةَ[2] في كلِّ يوم، ليقتضيَ رجلًا هناك خمسةَ دراهمَ فضلَت عليه، وقالوا: هذَا خطأ عظيم، وتضييع كثير. وإنّما الحزمُ أن يتشدَّد في غير تضييع. وصاحبُنا هذا قد رجَع على نفسه بضروب من البَلاء .

فاجتمعُوا عليه على طريق التفرّغ له ، والاستفادةِ منه. قالُوا: نراكَ تصنعُ شيئًا لا نعرفه، والخطأ منك أعظمُ منه من غيركَ. قد أشكلَ علينا هذا الأمرُ، فأخبِرْنا عنه؛ فقدْ ضاقتْ صدورُنا به: خبِّرنا عن مُضِيِّك إلى الحربيّة ، لتقتضيَ خمسة دراهم. فواحدّة : أنّا لا نأمَنُ عليكَ انتقاضَ بدنِك ، وقد خلاَ ما خلا من سِنِّك، وأن تعتلَّ ، فتدعَ التَّقاضِيَ الكثير بسببِ القليل. وثانيةٌ : أنَّك إن تَنْصَبْ هذا النَّصَبَ، فلا بدَّ لك من أن تزداد في العَشاء إن كنتَ ممن يتعشَّى ، أو تتعشَّى إن كنتَ ممن لا يتعشَّى . وهذا إذَا اجتمعَ كان أكثرَ من خمسةِ دراهم .

وبعدُ ، فإنَّك تحتاجُ أن تشُقّ وسَط السوق وعليك ثيابُك ، والحَمُولة تستقبلك. فمن ها هنا نَتْرَةٌ ، ومن ها هنا جَذْبةٌ؛ إذَا الثوبُ قد أوْدَى. ومن ذلك أنَّ نعلَك تنقَبُ وترِقُّ ، وساقَ سراويلك تتّسخُ وتَبْلَى، ولعلَّك أن تعثُرَ في نعلك فتقدَّها قدًّا ، ولعلّك أن تَهرِتَها[3] هَرْتًا .

وبعدُ ، فاقتضاءُ القليلِ أدْلَى بك إلى هذا [لو] بلغت منه شيئًا . وإنَّك أفضل؛ إلاَّ أنَّا نحبُّ أنَّك تُجلِّي عن الأمر بشيء؛ فليس كلُّنا يثقُ لك بالصوابِ في كلِّ شيءٍ.

قال أبو سَعيد : أمَّا ما ذكرتم من انتقاض البدن، فإنَّ الذي أخافُ على بدني من الدَّعة ومن قلّة الحركة أكثرُ. وما رأيتُ أصحَّ أبدانًا من الحمَّالين والطوَّافين. والقومُ قَبلي إن يموتوا، لم يكنْ لهم تلك عادةٌ. أَوَلَيْسَ يقول الناسُ: واللهِ لَفلانٌ أَصحُّ من الجَلاوِزة[4]؟ (يعني اختلافَ الجلاوزة في العَدْو) . ولربَّما أقمتُ في المنزل لبعضِ الأمرِ ، فأكْثِرُ الصعودَ والنزولَ، خوفًا من قلّة الحركة .

وأمَّا التشاغلُ بالبعيدِ عن القريبِ ، فإنّي لا أعرِضُ للبعيدِ ، حتى أفْرُغَ منَ القريبِ.

وأمَّا ما ذكرتُم من الزيادةِ في الطَّعَام، فقدْ أيْقَنَتْ نفسِي، واطمأنَّ قلبي، على أنَّه ليسَ لنفسِي عندِي إلاَّ ما لهَا ، وأنَّها إنْ حاسبتني أيّامَ النَّصَب، حاسبتُها أيَّامَ الراحة؛ فستعلمُ حينئذ أينَ أيّامُ

(١) اصطبغ : ايتدم، أي جعله أدما للطعام .
(٢) الحربية : محلة ببغداد .
(٣) تهرتها : الهريت الممزق .
(٤) الجلاوزة : جمع جلواز , وهو الشرطي .

الحربيّة من أيّامِ ثَقِيف[1] ؟

وأمّا ما ذكرتُم من تَلَقّي الحَمُولة، ومن مزاحمةِ أهل السوقِ ، ومن النَّثْر والجَذبِ، فأنّا أقطعُ عَرْض السوقِ من قبلِ أن يقومَ أهلُ السوقِ لصلاتِهم. ثم يكونُ رجوعي على ظَهْرِ السوق.

وأمّا ما ذكرتُم من شأن النعلِ والسراويلِ، فإنّي من لَدُنْ خروجِي من منزلي، إلى أنْ أقْرُبَ من باب صاحبي، فإنّما نعلي في يدي وسراويلي في كُمّي! فإذا صرت إليه لبِستُهما! فإذا فَصَلْتُ من عنده خلعتُهما! فهما في ذلك اليوم أوْدَعُ أبدانًا، وأحسنُ حالًا !

بقي الآنَ لكم ممّا ذكرتُم شيءٌ ؟ قالوا : لاَ . قال : فها هُنا واحدةٌ تفِي بجميع ما ذكرتُم. قالوا : وما هي؟ قال : إذا علِم القريبُ الدارِ ، ومَنْ لِي عليه ألوفُ الدنانير، شدّةَ مطالبتي للبعيد الدارِ ، ومَنْ ليس لي عليه إلاّ الفلوسُ ، أتى بحقّي ، ولم يُطْمِع نفسَه في مالي. وهذا تدبيرٌ يجمعُ لي إلَى رجُوعِ مالي طولَ راحةِ بدني. ثم أنا بالخَيارِ في تركِ الراحَةِ؛ لأنّي أقْسِمُها علَى الأشغالِ حينئذ كيفَ شئتُ. وأخرَى ، أنَّ هذا القليلَ لو لم يكنْ فضلةً منْ كثيرٍ، ومُوصَّلًا بدَيْن لي مشهورٍ ، لجازَ أن أتجافَى عنهُ. فأمّا أنْ أدَعَ شيئًا يُطْمِع في فُضولِ ما يبقَى على الغُرماء، فهذَا ما لا يجوزُ .

فقامُوا وقالُوا بأجمعهم : لا والله ، لا سألناكَ عنْ مشكِلة !

حدَّثني أحمدُ المكّيُّ ، أخُو محمدٍ المكيّ - وكان متّصلا بأبي سعيد - (نَسيتُ القُنْية، ونَسِيتُ صنعةَ المالِ، لأعاجيب أبي سعيد وحديثِهِ)، قال أحمدُ : قلت له مَرّةً: واللهِ إنَّك لكثيرُ المال ، وإنَّك لتعرِفُ ما نجهلُ ، وإنَّ قميصَك وَسِخٌ ، فَلِمَ لا تأمُر بغسله؟

قال : فلو كنتُ قليلَ المالِ ، وأجهلُ ما تعرف ، كيف كان قولُك لي؟ إنّي قد فكرّتُ في هذا منذُ ستّةِ أشهر، فما وضَح لِي بعدُ وجهُ الأمر فيه. أقول مرّةً : الثوبُ إذا اتّسخ أكلَ البَدَنَ ، كما يأكلُ الصدأ الحديدَ، والثوبُ إذا تَرادَفَه العرقُ وجَفَّ، وتراكم عليه الوسَخُ ولَبِدَ، أكِلَ السَّلْكُ[2]، وأخرِقَ الغزْل. هذا مع نَتْن ريحه، وقُبح منظَره.

وبعدُ، فإنّي رجلٌ آتِي أبوابَ الغُرَماءِ ، وغِلْمانُ غرمائي جبابرةٌ . فما ظنُّكَ بهم إذا رَأَوْني في أَطْمارٍ وسِخةٍ، وأسْمالٍ دَرِنة[3]، وحالِ حدّادٍ؟ جَبَهوا مرّةً، فيرجِعُ ذلِك علينا بمضَرّة. من إصلاح المال أنْ يُنْفَى عنه كلُّ ما أعان على حبْسه، مع ما يَدْخُل من الغيظ، ويَلْقَى مَنْ كان كذلك من المكروه .

فإذَا اجتمعتْ هذهِ الخواطرُ هَمَمْتُ بغسلِها، فإذَا هممتُ به، عارضني مُعارِضٌ يُوهمني أنّه أتاني

---

(١) ثقيف : قبيلة من هوازن كانت منازلها بالطائف وأيامهم كانت أيام راحة لهم بينما أيام الحربية فيها مشقة .

(٢) السلك : المقصود به الخيط يخاط به .

(٣) أسْمالٍ دَرِنة : ثياب بالية وسخة . ومثلها الأطمار .

من جهة الحزم، ومن قِبَل العقل، فقال : أوَّلُ ذلك الغُرْمُ الذي يكون، في الماء والصابون. والجاريةُ إذا ازدادت عناء، ازدادت أَكْلا. والصابونُ نُورَةٌ، والنُّورةُ تأكل الثوب. وإن انحَزَقَ، لا يزالُ الثوبُ على خطرٍ، حتى يُسْلَم إلى العَصْرِ والدَّق. ثُم إذا أُلْقِي على الرَّسَنِ، فهو بِعَرْضِ الجَذْبَة والنَّتْرَة والعَلْق[1].

ولا بُدَّ منَ الجلوسِ يومئذٍ في البيتِ. ومتَى جلستُ في البيتِ ، فتحُوا علينا أبوابًا من النفقةِ، وأبوابًا من الشهوات. والثيابُ لا بدَّ لها من دَقٍّ. فإنْ نحنُ دققناهَا في المنزلِ قطّعناهَا . وإن نحنُ أسلمناهَا إلى القَصّار[2]، فَغُرْمٌ على غُرْم. وعلى أنَّه ربَّما أُنزلَ بها منَ المكروه ما هو أشدُّ. وما جلستُ في المنزل قطُّ إلاّ أَرجفَ بي[3] الغرماء، وادّعَوْا عليّ الأمراضَ والأحداثَ. وفي ذلك لهم فسادٌ والتواء، وطمع لم يكن عندهم.

فإذَا أنا لبِستُها، وقد ابيضَّتْ وحسُنت وخفّت وطابت، تبيّنتُ عند ذلك وَسَخَ جَسَدِي، وكثرةَ شَعَري، وقد كانَ بعضُ ذلكَ موصولًا ببعض، فعرفته، فاستبانَ لي ما لم يكن يستبين، واكترثت لما لم أكن اكترثتُ له؛ فيصيرُ ذلك مَدْعاةً إلى دخول الحمّام. فإن دَخَلْتُه فَغُرْمٌ ثقيلٌ ، مع المخاطرة بالثياب. ولي امرأةٌ جميلةٌ شابّة. فإذا رأْتني قد اطّلَيْتُ وغسلتُ رأسي وبيَّضت ثوبي، عارضتني بالتطيُّب، وتلبسَ أَحْسَنَ ثيابِها!

مع أمورٍ كثيرة، نسَى بعضها أحمد ، وبعضَها أنا .

وكانَ أبو سعيدٍ هذا مع بخْله أشدَّ الناس نفسًا، وأحماهُم أنفًا. بلغ من أمرِه في ذلك، ومن بلوغه فيه، أنَّه أتَى رجلًا من ثَقِيف يقتضيهِ ألفَ دينار، وقد حلَّ عليه المالُ. فكان ربَّما أطال عنده الجلوسَ . ويحضُرُ عنده الغَداءُ، فيتغدَّى معه. وهو في ذلكَ يقتضيه.

فلما طالَ عليه المَطْل ، قال له يومًا ، وهو على خِوانه: إنَّ لهذَا المالِ زكاةً مؤدّاةً، وقد علِمنا [أنا] حين أخرجنا هذا المالَ من أيدينا أنَّه معرَّض للذهاب، وللمنازعة الطويلة ، ولأن يقع في الميراثِ. ثم رضِينَا منك بالربحِ اليسيرِ؛ بالذي ظنَنَّاه بك من حسن القضاء. ولولا ذلك لم نرض بهذا المال. وهذا المالُ إذا كانَ شرطُه أن يرجع بعد سنة، فرفّهتُ عنك بحسن المطالبة شهرًا أو شهرين، ثم مكث عندي إلى أن أَصبتُ له مثلَك، شهرًا أو شهرين، سُحِقَ فضْلُه، وخرجَ علينا فضلٌ . ومثلُك يكتفى بالقليل. وقد طال اقتضائي، وطال تغافُلك.

يقولُ هذا الكلامَ ، وهو في ذلكَ لا يقطعَ الأكلَ - فأقبل عليه رجل من ثَقِيف ، فعرّض له بأنَّه لو أراد التقاضِيَ مَحْضًا ، لكان ذلك في المسجد، ولم يكن في الموضع الذي يحضُر فيه الغَداء. فقطع

(١) العَلْق : خرق فى الثوب من شيء علق به . (٢) القصار : المبيض للثياب .
(٣) أرجفوا : أكثروا من الأقوال السيئة .

الأكْلَ، ثم نزَا في وجهه الدم، ونظر إليه نظرَ الجمل الصَّئول، ثم كاد يطير!

ثم أقبلَ عليه فقال: لا أمَّ لك! أنَا إنَّما اصطبغتُ من دَنٍّ خَلٍّ حتى فَنِيَ، من حسن العقل. وأحببتُ الغِنَى، بفضل بُغْضِي للفقر، وأبغضْتُ الفقرَ، بفضلِ أَنَفَتي من احتمال الذلّ. تُعرِّض لي - لا أمّ لك! - بأنّي أرغب في غَدائه؟. والله ما أكلتُ معه إلاّ لِيَسْتَحْيِيَ من حُرْمَة المؤاكلة، ولِيصيرَ كرمُه سببًا لتعجيل الحاجة.

ثمّ نهضَ بالصَّك وعليه طِينتُه[1]، فاعترض بها الحائطَ حتّى كسرها. ثمّ تفَل في الكتاب، وحكّ بعضه ببعض. ثمّ مزَقه ورمَى به. ثمّ قال لكلّ من شهِد المجلسَ: هذه ألفُ دينار كانت لي على أبي فلان، اشهدوا جميعًا أنّي قد قبضتُ منه، وأنّه بَريءٌ من كلّ شيءٍ أطالبُه. ثمّ نهض.

فلمَّا صنعَ ما صنعَ، أقبلَ الغريمُ على صاحبِه فقالَ: ما دعاكَ إلى هَذا الكلام؟ ثم تقولُ لهذَا الرجلِ على مائدتي! وتُقْدِمُ بهذا الكلام علَى من لا تعرفُ كيف موقعُ الأمور منه؟ وبعدُ، فقد واللهِ أردتُ مَطْلَه إلى أن أبيع الثمرَ، ورجوْنا حلاوتَه. فقد أحسنتَ إليه، وأسأتَ إلينَا، وعجّلتَ عليه مالَه. اذهبْ يا غلامُ، فاضربْ بذلك الثمرِ السوقَ فبعه بما بلغ!

فأخذ مالَه كَمَلًا[2]. ثم ركِبَ إليه، فأبى أن يأخذَه. فلمَّا كثرُ الأمرُ في ذلك قال: أظنُّ الذي دعا صاحبَك إلى ما قال أنَّه عربيٌّ وأنا مولًى. فإن جعلتَ شفعاءَك من الموالي أخذتُ هذا المال، وإن لم تفعل فإنّي لا آخذُه. فجمَعَ الثَّقَفِيُّ كُلَّ شُعُوبِيٍّ[3] بالبَصْرة، حتى طلبوا إليه، حتى أخذَ المال.

وكانَ أبُو سعيد يَنْهَى خادِمَه أن تُخْرِجَ الكُساحة منَ الدارِ، وأمَرَها أن تجمَعها من دورِ السكّانِ، وتُلقِيَها علَى كُساحتهم. فإذا كان في الحينِ، جلس وجاءت الخادمُ ومعها زَبِيلٌ، فعَزَلَتْ بين يديه من الكُساحة زَبيلا، ثم فتّشتْ واحدًا واحدًا. فإنْ أصاب قِطَعَ دراهمَ، وصُرَّةً فيها نفقةٌ، والدينار، أو قطعة حَلْى - فسبيلُ ذلك معروفٌ. وأما ما وُجِدَ فيه من الصوفِ، فكانَ وَجْهُه أنْ يُباعَ - إذَا اجتمعَ - منْ أصحابِ البراذِعِ. وكذلك قِطَعُ الأكسيةِ. وما كانَ منْ خرَقِ الثيابِ فمنْ أصحابِ الصينيّاتِ والصلاحيّاتِ[4]. وما كانَ منْ قشورِ الرمّانِ فمنَ الصبّاغينَ والدبّاغينَ. وما كانَ منَ القواريرِ فمنْ أصحابِ الزجاجِ. وما كانَ منْ نَوَى التمرِ فمنْ أصحابِ الحُشُوفِ. وما كانَ منْ نَوى الخَوْخِ فمنْ أصحابِ الغَرْسِ. وما كانَ منَ المساميرِ وقطعِ الحديدِ فللحدّادينَ. وما كانَ منَ القراطيسِ فللطّرازِ[5]. وما كانَ منَ الصُّحفِ فلرءوسِ الجِرارِ. وما كانَ منْ قطعِ الخشبِ فللاكّافينَ[6]. وما

---

(١) طينة الصك: قطعة من الطين الخاص كان يختم بها الكتب والرسائل ونحوها قديماً. (٢) كَمَلاً: أى كاملاً وافياً.
(٣) الشعوبية: نزعة فى العصر العباسى تنكر تفضيل العرب على غيرهم وتحاول الحطّ منهم.
(٤) الصلاحيات: هى الأوانى من الخزف يطلى داخلها بطلاء لسد المسام.
(٥) الطراز: ما ينسج من الثياب للسلطان والمقصود الموضع الذى تنسج فيه الثياب الجيدة.
(٦) الأكافين: مفردها أكاف، وهو الذى يصنع برذعة الحمار.

كانَ منْ قطَعِ العِظامِ فللوَقودِ. وما كانَ منْ قِطعِ الخِرقِ فللتنانيرِ الجُدُدِ. وما كانَ منْ إشْكَنْجِ[1] فهوَ مجموعٌ للبناءِ؛ ثم يُحَرَّكُ ويُثارُ ويُخَلَّلُ حتَّى يجتمعَ قُماشُه. ثم يعزلُ للتَّنُّورِ. وما كانَ منْ قِطعِ القارِ بيعَ منَ القيّارِ. وإذَا بَقِيَ الترابُ خالصًا، وأرادَ أنْ يضربَ منهُ اللَّبِنَ للبيعِ وللحاجةِ إليهِ، لم يتكلَّفِ الماءَ، ولكنْ يأمرُ جميعَ مَنْ في الدَّارِ ألاَّ يتوضّئوا ولا يغتسلوا إلاَّ عليهِ. فإذَا ابتلَّ ضَربه لبِنًا!

وكانَ يقولُ: من لم يتعرّفْ الاقتصادَ تعرُّفِي فلاَ يتعرضْ له.

وذهبَ منْ ساكنٍ له شيءٌ، كبعضِ ما يُسْرَقُ منَ البيوتِ. فقالَ لهُم: اطرحُوا الليلةَ ترابًا، فعسَى أن يندَم مَنْ أخذهُ فيُلقيَه في الترابِ ولا يُنْكِرُ مجيئَه إلَى ذَلِكَ المكانِ، لكثرةِ منْ يجيءُ لذلكَ. فاتَّفقَ أنْ طُرِحَ ذلكَ الشيءُ المسروقُ في الترابِ- وكانُوا يطرحونهُ علَى كُناستِه- فرآهُ قبلَ أن يراهُ المسروقُ منهُ. فأخذَ منهُ كِراءَ الكُساحةِ! فهذا حديثُ أبي سعيدٍ!

(قِصّةُ الأَصْمَعِيّ)

تمشَّى قومٌ إلَى الأصمَعيِّ معَ تاجرٍ كانَ اشترَى ثمرتَه بخسرانٍ كانَ نالَه، وسألُه حسنَ النظرِ والحطيطةَ. فقالَ الأصمَعيُّ: أسمعتُم بالقسمَةِ الضِّيزَى[2] هيَ واللهَ ما تريدونَ شيخَكم عليهِ! اشترَى منِّي علَى أنْ يكونَ الخسرانُ عليَّ والربحُ لهُ! هذَا وأبيكُم تجارةُ أبِي العَنْبَسِ! اذهبُوا فاشترُوا عليَّ طعامَ العِراقِ علَى هذَا الشرطِ! علَى أنِّي واللهِ ما أدرِي أصادقٌ هُو أم كاذبٌ. وها هنَا واحدةٌ، وهيَ لكُم دونِي، ولا بُدَّ منْ أن أحتملَ لكُم، إذْ لم تحتمِلوا لي. واللهِ ما مشَيتُم معهُ إلاَّ وأنتم تُوجبونَ حَقَّه، وتوجبونَ رِفْدَه[3]. لو كُنتُ أوجبُ لهُ مثلَ ما توجبُونَ، لقدْ كنتُ أغنيتُه عنكُم. وأنَا لاَ أعرِفُه، ولا يَضْرِينِي بحقٍّ. فَهَلُمُّوا نتوزَّعْ هذهِ الفضلةَ بيننَا بالسويَّة. هذَا أحسنُ ممَّن احتملَ حقًّا لا يجبُ عليه، في رِضَا مَنْ يجبُ ذلِكَ عليهِ.

فقامُوا ولم يعودُوا. فخرجَ إليهِ التاجرُ من حقِّه، وأيِسَ ممّا قِبَلهُ.

(هَذَا اللحمُ فأين السِّنَّوْرُ؟)

حدَّثَنِي جعفرُ ابنُ أختِ واصلٍ، قالَ: قلتُ لأبِي عُيَيْنَةَ: قدْ أحسنَ الذِي سألَ امرأتَه عنِ اللحمِ، فقالتْ: أكَلَه السِّنَّوْرُ[4]. فوزَنَ السِّنورَ، ثُمَّ قالَ: هذَا اللحمُ، فأيْن السنورُ؟ قالَ: كأنَّك تُعَرِّضُ بي!

قالَ: قلتُ: إنَّك واللهِ أهلُ ذَلِكَ: شيخٌ قدْ قاربَ المائةَ، وعليه فاضِلةٌ، وعيالُه قليلٌ، ويُعْطَى الأموالَ علَى مذاكرةِ العلمِ، والعلمُ لذّتُه وصنَاعتُه. ثم يَرْقَى إلَى جوْفِ منزلِهِ! وأنتَ رِجْلٌ لكَ في

(١) إشكنج: قطع الحجارة الصغيرة وما ماثلها من الحصى وغيره.
(٢) الضِّيزَى: القسمة الناقصة غير العادلة. وفى التنزيل: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢٢]
(٣) رِفْده: الرفد: العطاء والصلة. وفى التنزيل: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].
(٤) السِّنَّور: القط.

البستانِ ، ورِجْلٌ في أصحابِ الفَسِيلِ[1]، ورِجْلٌ في السوقِ، ورِجْلٌ في الكلأِ: تطلبُ منْ هذَا وِقْرَ جِصٍّ ، ومنْ هذَا وقْرَ آجُرٍّ، ومنْ هذَا قطعةَ ساجٍ، ومنْ هذَا هكذَا .

ما هذَا الحرصُ؟ وما هذَا الكدُّ؟ وما هذَا الشُّغلُ؟ لو كنتَ شابًّا بعيدَ الأملِ، كيفَ كنتَ تكونُ؟ ولو كنتَ مَدِينًا كثيرَ العيالِ، كيفَ كنتَ تكونُ؟ وقدْ رأيتُكَ فيمَا حَدَثَ تلبَسُ الأطمار[2]، وتمشِي حافيًا نصفَ النهارِ - قالَ : ثُم أجْمِجمُ.

بلغَنِي أنَّكَ فقدتَ قطعةَ بِطِّيخ، فألْححتَ في المَسْألَةِ عنهَا ، فقيلَ لكَ : أكلَهَا السِّنَّوْرُ. فرميتَ بباقِي القطعةِ قُدّامَ السِّنَّوْرِ، لتمتحنَ صدقَهم منْ كذبِهم! فلمَّا لمْ يأكُلْه غرِمْتَهم ثمنَ البِطِّيخةِ كما هيَ! قالُوا لكَ : كانَ الليلُ. فإنْ لم تكنْ التِي أكلتْه منْ سنانيرِ الجِيرانِ، وكانَ الذِي أكلَه سِنَّوْرَنا هذَا، فإنَّكَ رميتَ إليه بالقطعةِ وهُو شبعانُ منهُ. فأنْظِرْنا ولا تُغَرِّمنا، نمتحنُه في حالٍ غيرِ هذِه. فأبيتَ إلاَّ إغرامَهُم!

قالَ : ويْلكَ! إنِّي واللهِ ما أصِلُ إلَى منعِهم منَ الفسادِ، إلاَّ ببعضِ الفسادِ. وقدْ قالَ زيادٌ في خطبتِهِ: إنِّي واللهِ ما أصِلُ منكُم إلَى أخْذِ الحقِّ، حتَّى أحوضَ الباطلَ إليكُم حَوْضًا. وأمَّا ما لُمتنِي عليهِ اتفاقًا، فإنَّما ذهبتُ إلَى قولِهِ: لو أنَّ في يدِي فَسِيلةً، ثُم قيلَ لي : إنَّ القيامةَ تقومُ الساعةَ ، لبادرتُها فغرستُها. وقدْ قالَ أبو الدَّرْدَاءِ في وجعِهِ الذِي ماتَ فيهِ : زوِّجُونِي، فإنِّي أكرهُ أنْ ألقَى اللهَ عَزَبا. والعَربُ تقولُ : مَنْ غَلَى دِماغُه في الصيفِ، غَلَتْ قِدْرُهُ في الشتاءِ. قالَ مِكْرَزٌ : العجْزُ فِراشٌ وطِيءٌ ، لا يستوطِئُه إلاَّ الفَشْلُ الدَّثورُ[3] . وقالَ عبدُ الله بنُ وَهْبٍ: حبُّ الهَوَيْنَى يَكسِبُ النَّصَبَ. وقالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ (رَضِيَ الله عنهُ) : إيَّاكُم والراحةَ، فإنَّها غَفْلةٌ. لو أنَّ الصبرَ والشكرَ بعيرانِ ما باليتُ أيَّهمَا أركبُ. وقالَ : تَمَعْدَدُوا واخْشَوْشِنُوا[4]، واقطعُوا الرُّكُبَ، واركبُوا الخيلَ نَزْوًا. وقالَ لعَمْرو بنِ مَعْدِيكرِبَ حينَ شكَا إليهِ الحِقاءَ[5]: كَذَبَتْ عليكَ الظهائرُ[6]. وقالَ : احتفُوا ، فإنَّكمُ لا تدرونَ متَى تكونُ الجَفْلةُ[7]. وقالَ : إنْ يكنْ الشُّغْلُ مَجْهَدَةً، فإنَّ الفراغَ مَفْسدةٌ. وقالَ لِسعيدِ بنِ حاتمٍ : احذَرِ النعمةَ كَحَذَرِكَ منَ المعصيةِ، ولَهِيَ أخْوَفُهمَا عليكَ عندِي. وقالَ : أحَذِّرُكم عاقبةَ الفراغِ، فإنَّه أجمعُ لأبوابِ المكروهِ منَ الشُّغْلِ. وقالَ أكْثَمُ بنُ صَيْفِي: ما أحِبُّ أنِّي مَكْفِيُّ كلَّ أمرِ الدنيَا . قالُوا : وإنْ أسمنتَ وألبنتَ؟ قالَ : نعمْ. أكرهُ عادةَ العجزِ .

---

(١) الفسيل : جمع فسيلة , وهى النخل الصغير .

(٢) الأطمار : مفردها طمر , وهو الثوب الخلق البالى . (٣) الدثور : الرجل البطىء الخامل .

(٤) ذكره صاحب النهاية فى غريب الحديث والأثر [٢/ ٣٥ , ٤/ ٣٤١] موقوفا على عمر بن الخطاب . كما أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير [١/ ١٣٦] مرفوعاً إلى النبى ﷺ ، وسنده ضعيف جداً . وتمعددوا : يقال : تَمَعْدد الغلامُ ؛ إذا شبَّ وغَلُظَ , وقيل : أراد تشبّهوا بعَيْش مَعَدّ بن عدنان ، وكانوا أهل غلَظٍ وفَشف ، أى : كونوا مثلهم وذَعُوا التَّنعُّم وزىّ العَجَم _ اخشوشنوا : عيشوا عيشاً خشناً .

(٥) الحقاء : وجع فى البطن يصيب الرجل من أكل اللحم بحتاً . (٦) الظهائر : جمع ظهيرة ، وهى شدة الحر .

(٧) الجَفْلة : الإسراع والمضى فى الذهاب فى الأرض .

أَفَتَراني أدعُ وصايَا الأنبياءِ، وقولَ الخلفاءِ، وتأديبَ العربِ، وآخذُ بقولِكَ؟

(بين الزيتِ والسّمن)

وتغدَّى محمدُ بنُ الأشعثِ عندَ يحيَى بنِ خالدٍ. فتذاكرُوا الزيتَ وفضلَ ما بينهُ وبينَ السمنِ، وفضلَ ما بينَ الأَنْفاقِ وزيتِ الماءِ. فقال مُحمدٌ: عِندِي زيتٌ لم يَرَ الناسُ مثلَه. قال يحيى: لا تُؤْتَى منهُ بشيءٍ؟ فدعَا يحيَى غلامَه. فقالَ: إذَا دخلتَ الخِزانةَ فانظرِ الجَرَّةَ الرابعةَ عن يمينِكَ إذَا دَخلتَ، فجئْنَا منهُ بشيءٍ.

قالَ يحيَى: ما يُعجبني السيّدُ يَعرِفُ موضعَ زيتِهِ وزيتونِه.

(لماذَا أنضجه؟)

وقَرَّبَ خبّازُ أَسَدِ بنِ عبد اللهِ[1] إليهِ، وهو علَى خُراسان، شِوَاءً قد أَنْضَجَه نُضْجًا، وكان يُعجبُه ما رطُبَ منَ الشِّواءِ. فقالَ لخبّازِه: أتظنُّ أنَّ صنيعَك يخفَى عليَّ؟ إنَّك لستَ تبالغُ في إنضاجِه لتطييبه، ولكنْ تستحلبُ جميعَ دَسَمِه، فتنتفعُ بذلكَ منهُ!

فبلغتْ أخاهُ، فقالَ: رُبَّ جهلٍ خيرٌ مِنْ علمٍ[2]!

(العَن القدريّة)

وكانَ رجلٌ يغشَى طعامَ الجوهريِّ، وكان يتحرّى وقتَه ولا يخطِئُ. فإذَا دخلَ والقومُ يأكلُونَ، وحينَ وَضْعِ الخِوانِ، قالَ: لعنَ اللهُ القَدَرِيَّةَ[3]! مَنْ كانَ يستطيعُ أنْ يصرِفَني عن أكلِ هذَا الطعامِ، وقد كانَ في اللوحِ المحفوظِ أنّي سآكُلُه؟

فلمَّا أكثَرَ من ذلكَ، قالَ لَه رِياحٌ: تعالَ بالعشِيِّ أو بالغداةِ. فإن وجَدتَ شيئًا فالْعَنِ القَدَرِيَّةَ، والعنْ آباءَهُم وأمهاتِهم!

(طبق خَوخ)

وجاءَ غلامٌ إلىَ خالدِ بنِ صَفْوانَ[4] بطَبَقِ خَوخٍ - إمَّا أن يكونَ هديّةً، وإمَّا أنْ غلامَه جاءَ به منَ البستانِ - فلمَّا وضعَه بيْن يديهِ قالَ: لولاَ أنّي أعلمُ أنَّك قدْ أكلتَ منهُ لأطعمتُك واحدةً!

---

(١) أسد بن عبد الله البجلي. ولد ونشأ في دمشق. ومات في بلخ. وكان شجاعاً فاضلاً. ولاه أخوه خالد بن عبد الله خراسان سنه ١٠٨ هـ. توفى سنه ١٢٠ هـ.

(٢) رب جهل خير من علم: قالها بناء على قول أخيه ما لا يليق بالرجل الكريم لعلمه بدقائق فن الطهو وطبائع الناس.

(٣) القدرية قوم ينكرون القدر ويقولون (إن كل إنسان خالق لفعله).

(٤) خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التميمى المنقرى: من فصحاء العرب المشهورين. كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك, وله معهما أخبار. ولد ونشأ بالبصرة. عاش إلى أن أدرك خلافة السفاح العباسى وحظى عنده. وقد جمع بعض كلامه فى ﴿كتاب﴾. الأعلام [٢/ ٢٩٧].